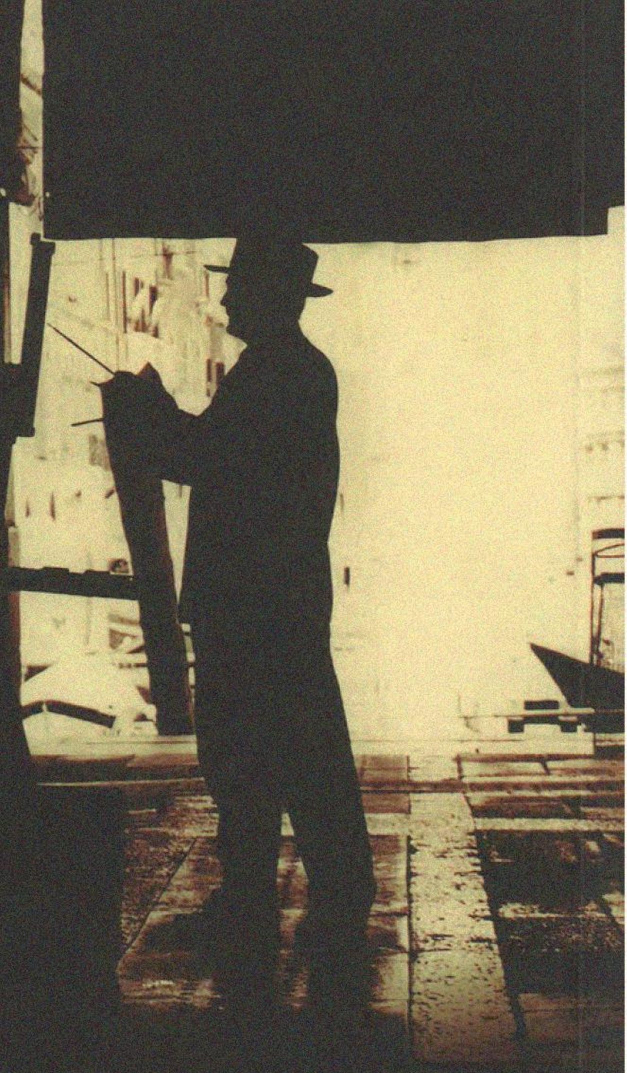


بيدرو ميرال

السنة المفقودة

ترجمة: أشرف القرقني

تقديم: زياد عبد القادر

رواية

بيدرو ميرال

السنة المفقودة

رواية

ترجمة: أشرف القرقني

راجع النصّ العربيّ وهذّبه: شوقي العنيزي

مسكيليانى للنشر

المؤلّف: بيدرو ميرال
عنوان الكتاب: السنة المفقودة
ترجمة: أشرف القرقني
تدقيق: شوقي العنيزي
خط الغلاف: الفنّان سمير قويعة
تصميم الغلاف: الفنان رؤوف العرفاوي
الناشر: مسكيليانى للنشر والتوزيع
15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة
الهاتف: 22997848(216+) أو 531531622(966+)
الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com
ر.د.م.ك: 5-51-833-9938-978

الطبعة الأولى: 2016

السنة المفقودة وأسئلة الفنّ الضائعة

على امتداد 126 صفحة لم تسكن يد بيدرو ميرال ولو مرّة وهي تحرّك ملعقة النثر، حيث كلُّ صفحة ظلُّ فنجان، وكلُّ كلمة قطرةُ عسل تذوبُ في حليب الشعر. تفرغ من قراءة صفحة فتدرك، دون صعوبة، أنّك إزاء رواية لا غنى عنها، ككوب الحليب وقطعة الخبز.

تكون في راحة من عقلك وبمجرد أن تتصفّح الكتاب يختلّ توازنك، وتمضي في نهر الحكاية مسحوبا باندفاع التيّار، بعيدا عن غرفتك، عن طاولتك، عن كرسّيك ومصباح مكتبك، وأنت تجدّف خلف الراوي باحثا عن لفافة الرسم الضائعة.

تكون قد اجتزت قرى أرجنتينية، قابلت صيّادين ومهرّبين، مشيت على طول أنهار موحلة وركبت عبّارة صدئة في جنح الظلام قبل أن تهتدي إلى مزرعة لوس لارانيس، أين ترقد لفافة القماش المفقودة، وفجأة تنهض أسئلة الفن.

رسّام أبكم، لا يظهر في رسوماته الخاصة ولا وجود لأيّ بورتريه له في أثره بأكمله، لا يتواصل مع جمهور ولا يتحدّث إلى نقاد. لقد رفض حتى أن يوقّع على أعماله، كما لو أنّ ما يمنح الفن قيمة هو الغياب الذي يعمل على إلغاء فاعلية التسمية إزاءه، الغياب الذي يبطل النطق حين يُعدم المنطوقَ ذاته. وها هو خوان سالفاتييرا يسقط عن ظهر الحصان ليفقد القدرة على النطق وينتهي به الأمر إلى الصمت المطبق مثل كبار المتصوّفة.

يظلّ خوان سالفاتييرا مجرّد قوس فارغ، فلفافة سنة 1961 التي تشكّل حلقة ضرورية لاكتمال شريط رسوماته لم تكن حيث يُفترض لها أن تكون. الرسام خارج الزمان ولفافته خارج المكان. لحظتان مطلوبتان لاكتمال تشكّل نظام أنظمة النسيان. لعلّ ذلك ما يفسّر عدم اهتمام خوان بتوقيع أعماله. ولمّا كان التوقيع هو الختم الذي يثبت أصليّة الاسم فإنّ من شأن غيابه أن يحدث «اضطرابا سلاليا لا يولّد اليتم وإنما إشكالات أخرى كاللقاطة La batarisme». هذا الاضطراب السلاليّ الذي انكشف كأوضح ما يكون إثر المحادثة النهريّة بين تشي وليبانيز، أظهر أنّ الختم كما الاسم ليس وسما فحسب بل علاقة جنيالوجية، افتقار متى سعينا إلى فكّ أسراره فإنه لن يعدم الذرائع التي تدمّره ليستمرّ في الاحتماء بألغازه: من نفسه ينتقم الغائب عندما ندفعه عنوةً إلى الظهور.

لعلّ هذا ما يفسّر المصير المأساوي الذي لقيته اللفائف في ختام الرواية. كان الكوخ يحترق ومعه كيلومترات من الأقمشة، ومن بين ألسنة النيران كانت جملة فريدريك نيتشه تتراقص في اللهب: «إنّ أقصى ما يبلغه أكبر المتنوّرين لم يتجاوز كونهم تحرّروا من الميتافيزيقا وأصبحوا ينظرون إليها بعين المتفوق نظرتهم إلى شيء خلفهم، بينما ينبغي، هنا أيضا كما في ميدان سباق الخيل، أن تتمّ الدورة حتى العودة إلى نقطة الانطلاق كي تبلغ نهاية السباق».

على ضوء هذا القول، هل كان من باب الصدفة أن يفقد خوان سالفاتييرا نطقه إثر سقوطه من فوق ظهر الحصان؟ وتزامن إنقاذ لفافة سنة 1961 مع احتراق لفائف كوخ بارّانكالس، هل كان مصادفة؟ ألا يعيدنا ذلك إلى نقطة الصفر؟

لقد تمت تسوية الأمر بالنار في مبادلة عجيبة مع القدر أشبه بنسخ

الآيات المقدسة. هلاك أطنان من الأقمشة مقابل نجاة لفافة واحدة. دينيا جرى الأمر وفق آلية الناسخ والمنسوخ. فلسفيا وفق ما يسمّيه جورج باطاي بـ«مبدإ التلف»، إذ ليس في قدرة «الجزء اللعين» تعطيل قوى الإخفاء والحظر إلاّ بمثل هذا الإنفاق الرمزي القريب من طقس الأضحية. لهذا كان لابدّ من دفع ثمن باهظ لرفع الحظر عن سرّ سنة 1961، ليس أقلَّ من ضياع جهد 60 سنة من الرسم. غير أنّ الطريف في الأمر هو أنّ ضياع ذلك الجهد سيغدو الأفق الذي لا يني يذكّر بلا تناهي الأثر أفضل من أيّ أثر آخر. والأطرف من كلّ هذا أنّ حريق برّانكالس لم يأت على مجرّد لفائف رسم، إنما على الأصل الذي يستحيل من دونه تصديق حقيقة لفافة سنة 1961.

«كان علينا أن نتركها في هذا العفن يا ميغيل. إننا نقحم أنفسنا في مسائل غير محمودة. ما كان علينا أن ننبش الماضي بهذه الطريقة. أليس كذلك؟

جلست على الكرسي الآخر. ولم أجبه بشيء. فتابع:

إنّ ما يحدث لشخص ما ينتمي لزمانه هو. كان ينبغي ألاّ تنقّب عنه فترفعه إلى السطح. ثمّتَ حكمة مّا في بقائه منسيّا. على كلّ شخص أن يعيش حياته الخاصة ويترك الموتى يرقدون في سلام».

من الضروري هنا الإشارة إلى جوهر النسيان بما هو فسحة خارج الزمن، متى أوّلناه تشكيليا فإنه لن يكون أوضح ممّا بدا عليه في ذلك الاندفاع الهائل للصور والبورتريهات المرسومة على طول عشرات الكيلومترات من الأقمشة.

«لم يتوقف أبدا لأنّ قماش الرسم نفسه لا يتوقف مطلقا بالنسبة إليه. وقد بدت تلك الطريقة أداته في التخلص من أيّ وقفة تعترض الرسامين».

في النسيان توجد حاجة المنسي إلى أن يظهر. وبالنظر إلى طاقته الفيّاضة فإنّ أطنانا من الأقمشة لن تفي بالغرض. عميق هو وفيّاض إلى تلك الدرجة التي تمنحه امتياز تمثيلِ جملة ميغيل سالفاتييرا: «الصفحة هي المكان الوحيد في الكون الذي تركه الرب فارغا من أجلي». جملة تلخّص جوهرَ الفن. ففي النهاية نحن نحاول أن نجد شيئا سبق أن وجدنا.

من المهم قراءة هذه الرواية، على الأقل من جهة ما تقدّمه من مثال ناصع عن خطورة كتابة رواية صغيرة الحجم.

وأنا أطوي الكتاب احزروا ما الذي قدح في ذهني؟

إنها جملة أندريه تاركوفسكي: «عمل كهذا لابدّ وأنه قد تشكّل بواسطة عملية عضوية كالبلّور تماما»

زيــاد عبد القــادر

أمّ العرائس في 2015/9/12

(1)

اللّوحةُ (أعني النسخة المُصوّرة منها) في متحف رويل. إنّها تمتدّ حول رواق سُفليّ مقوَّس يصل المبنى القديم بالجناح الجديد. عندما تهبط الدّرج تشعر بنفسكَ تتحرّك داخل أكواريوم. تتحرّك اللّوحة على امتداد حوالي ثلاثين مترا من الجدار الدّاخليّ مثل نهر. ثمّتَ[1] مقعدٌ عند الجدار المقابل حيث يستطيع النّاس أن يجلسوا ويشاهدوها وهي تتدفّق أمامهم ببطء. سيتطلّبُ إتمامُ دورتها يوما كاملا. أكثر من أربعة كيلومترات من الصّور تتكشّف شيئا فشيئا من اليمين إلى اليسار.

إذا قلتُ إنّ أبي احتاج إلى ستّين سنة كي يرسمها، سيبدو الأمر كما لو أنّه قد نذر حياته من أجل إنهاء عمل ضخم. لذلك سيكون من الدّقّة أن أقول إنّه رسمها على امتداد ستّينَ سنة.

---

(1) ثمّتَ: آثرنا أن نكتُبها بالتاء المفتوحة بدلا من الخطإ الشائع «ثمّة»، وقد ورد في لسان العرب: «وثَمَّ: بمعنى هناك وهو للتبعيد بمنزلة هنا للتقريب. وثَمَّتَ أيضا: بمعنى ثَمَّ.» أمّا « ثمّة» فخطأ شائع ولا وجود له في اللسان (المدقّق).

(2)

الأسطورة التي بدأت تتعاظمُ الآن حول شخصيّة سالْفاتييرّا تستندُ أساسا إلى صمته. أو بعبارة أخرى، تستند إلى عدم قدرته على التّكلّم، إلى حياته المجهولة، إلى الوجود السّرّي المطوَّل لعمله، وإلى اختفائه الكلّي تقريبا. إنّ حقيقة أنّ قماشا واحدا قد تبقّى من أعماله تعني أنّ هذه القطعة الفريدة تزداد قيمتها يوما بعد يوم لتصبح صفقة عظيمة. لم يُجرِ محاورةً صحفيّة مُطلقا. ولم يترك ملاحظة واحدة عن عمله. ولا كان له أيّ دور في حياتنا الثّقافيّة، بل إنّه لم ينظّم معرضا واحدًا طوال حياته. ونتيجةً لذلك، يمكن للمشرفين على المتاحف والنّقاد أن يملؤوا ذلك الصّمت بما شاؤوا من الآراء والنّظريّات.

لقد قرأتُ ذلك النّقد الذي اعتبر عمله «فنّا خاما»، فنّا مشكّلا بطريقة عفويّة تماما تقوم على تعلّم ذاتيّ دون أيّ ادّعاءات فنّيّة، في حين تحدّث مقالٌ نقديّ آخر عن التّأثّر الواضح لأعمال سالْفاتييرّا بالرّسّامين التّنويريّين المايوركيّين. وإن كان الأمر كذلك، فإنّ المسافة التي ينبغي على ذلك التّأثّر أن يقطعها طويلةٌ جدّا، إن لم نقل مستحيلة: بدءًا من رسّامي اللّومينيزم[1] المايوركيّين وصولا إلى برْلانْدو دي كويروسْ، ومن كويروسْ إلى صديقه وتلميذه هربرْتْ

(1) مصطلح يشير إلى مدرسة في الرّسم تقوم على توظيف التقنيّات الضّوئيّة. وقد اخترنا الابتعاد عن تعريبه بـ«الرسّامين التنويريّين» لكي لا يختلط بدلالة التّحديث والتنوير في أوروبا. (المترجم).

هولتَ ومن هولتَ إلى سالْفاتييرّا. وذهب عملٌ نقديّ آخرُ إلى تفصيل القول في التشابهات التي تجمع عمل سالْفاتييرّا مع الإيماكيمونو، تلك المخطوطات الطّويلة السائدة في الفنّ الصّينيّ أو اليابانيّ. صحيحٌ أنّ سالْفاتييرّا قد يكون رأى واحدة من تلك المخطوطات من قبل. ولكنّ الصّحيح أيضا أنّه طوّر تقنيته من خلال الاستمرار في الرّسم لفترة طويلة أوّلاً وقبل كلّ شيء.

ولكن، ليس لهذه الفرضيّات أيّ أهمّيّة في اعتقادي. وإذا ما شرعتُ في تصحيح جميع ملاحظات سوء الفهم في ما قيل عن أبي، فلن يتبقّى لديّ أيّ وقت للقيام بعمل آخر. لذا عليّ أن أتعوّد على فكرة أنّ أثر سالْفاتييرّا لم يعد مُلْكا لنا (وهنا أقصدُ عائلتنا) وأنّ أناسا آخرين يرونه الآن، ينظرون إليه مليّا، يؤوّلونه بشكل سليم أو خاطئ، ويُعدّون تقييمات نقديّة حوله، وبشكل مّا يمتلكونه. وهكذا فقط ينبغي أن يكون الأمر.

يمكنني أيضا أن أفهم أنّ غياب هذا الفنّان يحسّنُ الأثر، لا لأنّه ميّت فحسبُ، بل بسبب الصّمت الذي ذكرتُه سلفا. إنّ حقيقة غياب الفنّان وعدم مكوثه في الطّريق الواصلة بين الجمهور والأثر تعني أنّ النّاس أكثر حرّيّة في الإعجاب به. بهذا المعنى، يمثّل سالْفاتييرّا حالة متطرّفة بشكل مميّز. إذْ لا يوجدُ مثلا أيّ بورتريه ذاتيّ له في أثره بأكمله. إنّه لا يظهر في رسوماته الخاصّة. وما يبدو أساسيّا في الأمر أنّه يعرضُ مذكّرات شخصيّة عبر صور لا يوجد فيها هو نفسه، كأن تكتب سيرة ذاتيّة عن حياتك دون أن تظهر فيها مجرّد الظهور. ثمّةَ نقطةٌ أخرى مثيرة للفضول: لا وجود لأيّ إمضاء على الأثر. ورغم ذلك، فإنّ هذه النقطة بالذّات قد لا تبدو غريبة. ففي النّهاية، أين يمكنه أن يُمضي على لوحة بذلك الحجم؟

من بين جميع التّشويهات التي نمَت حول شهرة أبي بعد رحيله، يبقى الظّهور المفاجئ لأصدقائه ومعارفه المفترضين أكثرها عبئًا وأقلّها قدرة على التحمّل، خاصّة إذا علمنا بأنْ لا أحد تقريبا في بارّانْكالسْ كان يعرفُ أنّ سالفاتّييرّا يرسمُ أصلاً، وأنّ القليلين الذين يعلمون ذلك لم يكونوا مهتمّين بالأمر. لقد شاهدتُ، منذ أسابيع قليلة، فيلما وثائقيّا يظهر فيه العديد من النّجوم في بارّانْكالسْ يتحدّثون أمام الكاميرا (بترجمة فرنسيّة أسفل الشّاشة) ويسردون مُلحا وحكايات عنه وعن طبعه وطريقته في العمل، حتّى عمّاتي، ورغم أنهنّ كنّ يزْدَرينَهُ من قبل، فقد ظهَرْنَ هُنّ أيضا مع سكريتير ثقافيّ إقليميّ لطالما كان رافضًا لآثار سالفاتّييرّا سنوات وسنوات، بل إنّ أرملة الدّكتور دافيلا التي لم تكن تفتح لي الباب حين أذهب لزيارتها، كانت معهم. وكانوا جميعا في غاية الزينة والأناقة وهم يسردون حكايات مزيّفة أو حقيقيّة عن أبي. ولو حرص المشرفون على الفيلم على محاورة جوردان وآلدو، لكان الأمر أكثر صدقا على الأقلّ.

(3)

عندما كان في التّاسعة، تعرّض سالفاتييرّا إلى حادث مُروّع أثناء ركوب الخيل مع أبناء عمّه وسط بستان النّخيل، أسفلَ النّهرَ. كان يركبُ حصانا رماديّا مرقّطا ذا فروٍ منتصب، كذلك الحصان الّذي ظلّ يرسمه دائما، وهو ممتزج بسماء متجهّمة مثل وعيد ما ينفكّ عن الظّهور طوال لوحته كلّها. لقد كان مجرّد ركوبه يستدعي الرُّعبَ نفسَهُ في نصف خَبَب. وسقط سالفاتييرّا إذ تداعى حصانه. لكنّ قدمه علقتْ في رِكاب السّرج. وظلّ متدلّيا بين القوائم وهي تتقدّم عبر الأشجار. لقد سُحق بشكل عنيف إلى درجة أنّ جمجمته انكسرت وتحطّم فكّه وخُلع وِرْكه.

عثر عليه أبناء عمّه بعد نصف ساعة في الغابة، وهو ما يزال متدلّيا من الحصان الذي كان ينظر في هدوء خلف شجيرة شائكة، فسحبوه إلى الخلف وسط دموعهم، وقد تيقّنوا أنّه ميّتٌ. وذلك ما كان يردّده عمّي دائما.

لقد أنقذت حياتَه طاهيةٌ عجوز بعين واحدة. حملته، وغسلت جراحه بنوع من الدّواء المستخرج من الأعشاب. ثمّ غطّته بملابس نظيفة. ووضعته في السّرير وهي تهمس في أذنه. وحين عاد جدّي وجدّتي من المدينة وشاهدا حالته، أُغمي على جدّتي فورًا.

لم يحدث شيء حتّى قدوم طبيب سكران في اليوم التّالي وهو

يقود سيّارة قديمة تسع مكانين فقط. ولحسن الحظّ أنّه لم يلمس سالْفاتييرّا. بل قال ببساطة: «لا شيء أمامنا لنقوم به سوى الانتظار». وظلّ يظهر مرّة كلّ ثلاثة أيّام ليتذوّق النّبيذ عند الغداء أكثر من فحصه لمريضه. لم أتمكّن أبدا من اكتشاف اسم ذلك الطّبيب. لكنّه قام بشيء أساسيّ في حياة أبي. فهو لم يسمح له فقط بأن يستعيد عافيته دون أن يخضعه للنّزيف العلاجيّ والحمّامات الباردة جدّا، المنصوح بهما في تلك الأيّام، بل منحه إذْ لاحظ أنّه بصدد التّحسّن ألوانا مائيّة إنجليزيّة أُحضرت من خلف النّهر في الباراغوايّ.

بعد تلك الحادثة، لم يتكلّم سالْفاتييرّا مجدّدا. يستطيع أن يسمع ولكن لا أن يتكلّم. لم نعرف أبدا إن كان خرسه ناتجا عن سبب جسديّ أم نفسيّ أم مزيجا من كليهما. وكلّ محاولات شفائه كانت نسيجا عائليّا، وباءت كلّها بالفشل. فمثلا، يُترك كأس من الماء في مكان مّا حيث يستطيع أن يراه دون أن يدركه. ثمّ يقالُ له إنّه لن يتمكّن من الحصول عليه ما لم يقلْ كلمة «ماء». وكان الأمر بلا جدوى. فرغم أنّ سالْفاتييرّا كان من الممكن أن يموت عطشا، فإنّه لم يلفظ حرفا واحدا.

وكلّ ما توصّلت العائلة إلى تحقيقه هو السّماح له بالرّسم متى شاء ذلك. لا سيّما أنّه شرع في الرّسم حين رأى الألوان المائيّة فيما بعد. طبعًا، لم تعش هذه اللّوحات التي أنجزها في تلك السّنوات. (وفي الحقيقة، عندما استهلّ أثره العظيم في سنّه العشرين، أحرق بنفسه كلّ جهوده السّابقة). وحسب ما قيل لي، فإنّ سريره كان يُنقل تحت الشّجرة حين بدأ يستعيد عافيته ليرسم طيورا وكلابا وحشرات أو يخطّط بورتريهات عابرة لعمّاته وبناتهنّ المراهقات وهنّ يشربن ليمونا طازجا في ظلّ المساء المبكّر.

(4)

عَزَلَتْهُ نقاهتُه المطوّلة وصمتُه الدّائم عن المهامّ التي يؤدّيها الرّجال الأقوياء المعافون في العائلة. وحرّراه من الانتظارات العظيمة لأبيه الإسبانيّ. لقد قدم جدّي رافاييل سالْفاتييرّا، إلى الأرجنتين مع أخيه بابْلُو في أوائل العشرينيات من عمُره. في البداية، عملا في مزارع صغيرة في كونسبسّيون دال أوروغوايْ[1]. ثمّ أصبحا بعد ذلك مشرفيْن على مزرعة في كولون إلى أن صارا قادرين في سنواتهما الأربعين على شراء أرض رمليّةٍ لم يكن أحد في منطقة برّانكالس يرغب فيها. كان جدّي يُشرع ساعديه عند العشاء في حركة لم تكن تشير فقط إلى غرفة الطّعام بل تشمل أيضا كلّ فدادين الأرض التي تحيط بهم. ثمّ يقول لأبنائه: بدأتُ من الفقر المدقع. ثمّ بلغتُ هذا الحدّ. من هنا تبدؤون. فلنر إلي أيّ حدّ ستصلون. ولقد حمَتْ ضرباتُ الحصان الرّماديّ المرقّط أبي من هذا التحدّي المصيريّ.

وبذلك، أصبحَ الطّفلُ الصّغيرُ الأبكم، الأبلهَ الوحيدَ في العائلة. فكانوا يسمحون له باللّعب مع النّساء ولم يطلبوا منه أبدا أن يثبت فحولته مثلما يُطلب من بقيّة الذّكور في العائلة أن يبرهنوا عليها بإطلاق النّار باستخدام بندقيّة الصّيد أو ركوب الثّور والصّيد بالوهق[2]. لقد

(1) منطقة سكنيّة تقع في الأرجنتين في محافظة إنتري ريوس. (المترجم).

(2) حبلٌ يستخدمه رعاة البقر لصيد الحيوانات. (المترجم).

قضّى وقته مع بنات أعمامه اللّواتي كنّ يجتذبْنه ويرعيْنه ويعاملْنه مثل دمية. كنّ يلعبْن دور معلّمات له ويعلّمْنه كلّ ما يعرفْنه. كنّ يجبرْنه على الكتابة حتّى لا ينسى الحروف. ثُمّ يجعلْنه يتواصل معهنّ عبر كتابة الرسائل على الألواح. ويستحْممْنَ معه في النّهر. وقد أخبرتني عمّتي دولوريس بأنّ الفتيات كُنّ يَطلُبنَ منه، إذْ يشرعن في تغيير ملابسهنّ من أجل السّباحة في الأسفل بين أشجار الصّفصاف، أن يلتفت، فيدير ظهره إليهنّ. ثمّ يصفّقُ للمرّة الأولى (وكانت تلك طريقته كي يسأل إن كان بإمكانه الالتفات مجدّدا) فيجبْنه: لا. وبعد لحظات، يصفّق مجدّدا. لكنّهنّ يجبنه بالنّفي مرّة ثانية. وإذ يوشكُ أن يلتفت دون أن يُقيم اعتبارا للأمر، يسمعهنّ وهن يتضاحكن. فيستدير ليجدهنّ قد ولجْنَ إلى النّهر منذ لحظات.

لا شكّ أنّ مزحتهم الصّغيرة تلك قد آلمتْ سالْفاتييرّا، لأنّه يمكنك أن تلاحظ عادة في أثره مجموعة من الفتيات المراهقات وهنّ يغيّرن ملابسهن في الضّوء الأخضر تحت أشجار الصّفصاف عند ضفّة النّهر... فتيات دُبغتْ أجسامهن بأشعّة الشّمس وهنّ متعجّلات لشعورهنّ بالخجل من عريهنّ. لقد رسمهنّ حتما لأنّه كان يحتاج إلى رؤية تلك المشاهد بعد انتظار مطوّلٍ، يحتاج إلى رؤية ما كان يحدث خلف ظهره وهو عاجز عن معاينته، ويحتاج إلى التحديق في كثافتهنّ الضّوئيّة التي كانت في غاية القرب منه، ولكنّها كانت في الوقت نفسهِ ممنوعة عنه.

(5)

لو كان سالْفاتييرّا قد سأل أخي لويس أو سألني أنا أن أهتمّ بأثره بعد موته، لكنّا على الأرجح قد تجاهلنا ذلك وإن فعلنا فإنّنا سنكون فاقدين لكثير من الرّغبة. وحين سأله لويس، في اليوم الذي سبق موته في مستشفى بارّانْكالسْ: «بابا، ماذا سنفعل بالقماش؟»، ابتسم سلفاتييرّا ورفع يده إلى أعلى كمن يلقي شيئا مّا خلفه دون أن يكترث له، وكأنّه يريد أن يقول: «لا يهمّ. لقد سبق وأن استمتعتُ به». ثمّ وضع إبهامه أسفل عينه. ورفع ذقنه باتّجاه أمّي التي كانت تفتح السّتائر وظهرها متّجه إلينا. وقد فهمتُ من حركته تلك، أنّه يقول: «حافظا عليها» أو شيئا من هذا القبيل. طبعًا، لم تُتحْ لنا الفرصة لنسأله عن اللّوحة مرّة أخرى. ورغم ذلك، فقد بدا رسمُها في حدّ ذاته هو كلّ ما كان يهمُّه، لا أكثر ولا أقل. ومهما كان الأمر الذي سنقرّره في شأنها، فإنّه لم يكن ليكترث له مجرّد الاكتراث. وسرعان ما رحلت روحه في سلام خلال نومه عند السّاعات المبكّرة من الصّباح التّالي.

في وقت لاحق، عندما قرّرتُ أنا ولويس القيام بشيء مّا في مسألة اللّوحة، كانت حركتنا الأولى أن نمضي فنتحدّث مع صديقه القديم الدّكتور دافيلا. لقد كان طبيبنا عندما كنّا صغارا. ورغم سنّه المتقدّمة، فقد احتفظ ببعض العلاقات في الحكومة الإقليميّة يمكن أن تُنجدنا. اقترح علينا في البداية أن نتقدّم بطلب منحة كي تساعدنا في

بناء متحف صغير. ثمّ كَتبَ رسائل عديدة يؤكّد فيها على جودة الأثر وأهمّيّته وقيمته باعتباره وثيقة نادرةً تبرز عاداتِ الناس وحياتهم في زمنٍ ومنطقة مميّزين. ولقد نجح هذا الأمر في الاعتراف بأثره بوصفه «جزءا من التّراث الثّقافيّ الإقليميّ». لكنّ الأموال التي كنّا نحتاج إليها لإقامة المؤسّسة لم تصل أبدا. ولم يأت أيّ شخص من أعضاء البلديّة ليُلقي مجرّد نظرة على عمل أبي. وكلّ ما حصلنا عليه هو الشّهادة: كومة من الأوراق الرسميّة المزدحمة بالعناوين والأختام تمّ الإمضاء عليها بشكل منمّق جدّا. وعوض أن تساعدنا، فقد آلتْ إلى خلق كابوس بيروقراطيّ.

وسرعان ما مرّ الوقت، بعد ذلك، دون أن نستطيع القيام بشيء. طبعًا، لم نتحدّث في المسألة مع أميّ لأنّنا لم نشأ أن نثير (أو على الأرجح أن نستخرج) الماضي أمام عينيها. فقد تخيّلنا كم سيكون الأمرُ مُؤلما لها. ولم يكن هذا القرار ناجما عن أيّ نقاش مع أخي، بل حدثت الأمور بكلّ بساطة على هذا النّحو. فلطالما كان أبي وأمّي متآلفين جدّا. وبعد موته، واجهت أمّي غيابه بصمت واضح وكلّيّ، لم نجرؤ يوما على كسره. ولقد ماتتْ هي الأخرى بعده بسنوات دون أن تعرف أبدا أنّنا كنّا ننوي إنقاذ اللّوحة. وهي نفسها لم تخض في الأمر مطلقا. وكلّ ما أمكن أن يتسرّب من بين شفتيها في مرّة من المرّات هو أنّ صاحب السّوبرماركت المشيّد حديثا في جوار الكوخ الذي كان أبي يرسم فيه قد اقترح عليها شراء الأرض. ولكنّها رفضت.

(6)

في يوم جنازة أمّي، ما إن تحرّرنا من العمّات وجميع التّعازي، حتّى انفلتُّ أنا ولويس، وركبنا سيّارته، وقصدنا الكوخ. لقد مرّت سنوات عديدة منذ ذهابنا إلى ذلك المكان. وحال اقترابنا منه، رأينا الأرض التي تقع خلفه، فلم نجد بستان الخيزران الّذي كان منتشرا هناك، لقد تلاشى هو الآخر تحت السوبرماركت المنتصبة الآن في مكانه.

مازال باب الكوخ موصدا.

«أيجدر بنا الدّخول؟» سأل لويس.

شعُرنا للحظة بالتّردّد. ثمّ أوقفنا السّيّارة. وخرجنا منها. فتفاجأنا إذْ لم نعثر على قفل في باب الكوخ. دفعناه. فانفتح. ثمّ دخلنا سائليْن الإذن من شبح سالْفاتييرّا، كما لو كان المكان هيكلا. كانت لفّاتُ القماش هناك، متدلّية بعناية من عوارض السّقف. عددْناها. فكانت أكثر من ستّين لفّة...حياة رجل برمّتها. جميع أيّامه ملفوفة ومخبّأة هناك.

«ما الذي سنفعله؟» سألتُ لويس.

كانت اللّفات متدلّية فوق رأسينا وأمامنا مهمّة ضخمة لإتمامها.

«كم تبلغ من الأمتار حسب رأيك؟»

حدّق لويس إلى أعلى. ثمّ عدّل نظّارته. وقال: «كيلومترات يا تشي، كيلومترات عديدة»

كنّا نعرف بعض الأجزاء من العمل، خاصّة تلك التي رسمها خلال الفترة التي كنّا نساعده فيها على إعداد القماش. لكنّ سالْفاتييرّا اعتاد أن يرسم أقساما من أثره خلف الأبواب الموصدة، ثمّ تُلفّ وتُخبّأ ولا نراها من بعدُ أبدا. أمّا الآن فإنّنا نُواجه العملَ كاملاً لأوّل مرّة، نُواجه ألوانَه وأسرارَه والسنوات التي استغرقها جميعًا. أعتقد أنّ كلينا كان يشعر بالفضول ولكنّنا شعرنا بالفزع كذلك من ضخامة المهمّة التي نقدم عليها. وقفنا هناك غير قادريْن على الحركة: رجلان في الأربعين، يتصاعد البخار من فميْهما داخل الكوخ البارد وأيديهما محشوّتان في جيوب معطفيْهما. وفجأةً، سمعنا صوتا أجشّ يقول: «ما الذي تبحثان عنه؟»

رأينا رجلا صغير الحجم ذا شعر مجعّد يحمل عصا كبيرة في يده. كشفنا له عن هويّتنا. وذلك ما هدّأ من غضبه. فقدّم نفسه هو الآخر: إنّه آلْدو، مساعدٌ استقْدمه سالْفاتييرّا لمعاونته في إنجاز العمل بعد أن توقّفنا عن ذلك حين رحلنا إلى بوينوس آيرس. لقد التقينا في مناسبتين تقريبا. ولذلك تعرّف كلّ منّا على الآخر بعد فترة من التفحّص. لقد بدا لنا متجهّما على غير عادته وكأنّه غير قابل لأيّ تواصل مع الآخر. قال لنا إنّ أمّي قد توقّفت عن دفع أجرته بعد وفاة سالفاتييرّا. لكنّه استمرّ في المجيء إلى الكوخ بسبب تلك الأشياء القليلة التي كانت هناك. فيتفقّد تسرّب المياه ويضع سمّ الفئران.

قال لنا أيضا إنّه قد عثر منذ أسابيع قليلة على رجلين يطوفان بالبيت، محاولين اقتحامه. لكنّه الآن لم يعد يغفل عنه. ويحتفظ دائما بسلاح في متناوله. لمحنا سريرَ مُخيّم هناك عند الزّاوية، وإلى جانبه عقب شمعة. يوجد أيضا نصفُ قارب محطّم، درّاجة قديمة، بضعة صناديق وأكياس وأكوام من القطع المهشّمة والأجزاء المفكّكة هنا

وهناك.

سألناه عن آخر شيء كان سالْفاتييرّا قد رسمه. فقدّم لنا مخطوط سنته الأخيرة. كان بالقرب من الأرضيّة، في مستوى ارتفاعنا. نزع الغلاف عنه. وشرعنا نحلّ اللّفافة. رأينا الأشياء الأخيرة التي رسمها سالْفاتييرّا قبل أسبوعين من وفاته. كانت الأمتار القليلة الأخيرة من القماش جميعها بلون المياه الرّاكدة، شفّافةً حينًا وفي أحايين أخرى غامقة مثل صمتٍ تحت الماء، حيث تسبحُ أحيانا سمكة وحيدة بمفردها أو تطفو دوائر قليلة على السّطح.

نظرتُ إلى لويسْ ونظر إليّ. أظنّ أنّ حسّ الهدوء الذي تطلقه اللّوحة قد أعجبنا معًا.

«إنّها غير مكتملة». قال آلْدو وهو يشير إلى سمكة ودوائر أخرى كانت نصف تامّة. «بعد أن أتمّ هذا الجزء، نفدت قواه. ولم يرغب في المواصلة». لم يكن ذلك مهمّا. فقد كان من الواضح أنّ سالفاتييرّا قد أنهى اللّوحة بشكل مّا حيث أراد، كما لو أنّه اختار فيما بعدُ وبكلّ بساطة أن يموت.

تساءلتُ آلاف المرّات كيف يمكن أن تكون نهاية اللّوحة. تلك اللّوحة التي بدت لي متدفّقة إلى ما لا نهاية له، رغم أنّني كنتُ أعلم أنّها سوف تنتهي في يوم من الأيّام، تماما مثلما أدرك أبي نهايته وكان بشرًا فانيًا حتّى لو رفضتُ أن أصدّق ذلك. وهنا كانت الإجابة.

(7)

عندما كان في الرّابعة عشرة من عمره، وبعد أن هجرته بنات عمومته اللّواتي نشأن على الملل منه، أصبح سالْفاتييرّا على التّدريج وحيدا تماما. التقطه مصوّر العائلة في ذلك الوقت وهو يقبض بطريقة غير ملائمة على الكأس في اتّجاه الآخرين ويبدو مثل مُهر متقلّب من خلف أنفه البارز الذي ورثناه عنه أنا ولويسْ. اعتادتْ أمّه أن تسمح له بزيارة رسّام ألمانيّ فوضويّ يدعى هربرْتْ هولتْ إذْ كان يقطن قريبا من بيتهم في بارّانكالسْ، وهو صديق لبرنالْدو دي كويروس وتلميذ له. وقد علّم هولتْ أبي تقنيّات الرّسم الزّيتيّ.

كان سالْفاتييرّا نفسه من روى لنا كلّ هذا. بتلك الملامح التي ورثتها عنه وبعض الإيماءات، كان يقصّ علينا أحيانا قصصا وحكايات. اعتاد أن يذهب إلى منزل هولتْ مرّتين كلّ أسبوع مستخدما درّاجته (كان ذلك في فترة بعيدة قبل أن يمتطي حصانا مرّة أخرى). وكان يقود الدّراجة بمحاذاة النّهر على امتداد المسار القديم الذي استبدل الآن بالطّريق المركزيّة، عابرا بستان الأشجار عند المدخل الجنوبيّ للمدينة: شجر الرّماد والصّنوبر وشجر الحور الذي يشكّل أنفاقا خضراء تظهر في عمله، ليصل إلى بيت هولتْ عند التّاسعة صباحا. في البداية لم يكن الرجل العجوز يسمح له بالرّسم إلى جانبه، إلاّ على إثر بعض الاقتراحات العَرَضيّة. وشيئا فشيئا، علّمه هولتْ أن

يستخدم المناظير ويمزج الألوان ويدرس الأبعاد و-الأهمّ من ذلك كلّه- أن يرسم كلّ يوم. ولطالما انشغلا برسم المتشرّدين الذين يثبّتهم هولتْ مقابل النّبيذ والبسكويت.

ثُمّ رحل هولتْ عائدا إلى ألمانيا، إثر انقلاب يوريبورو[1] سنة 1930.

يعتقد أخي أنّه ما من سبب سياسيّ يتعلّق برحيله. ولكنّ الرجل العجوز لاحظ أنّ تلميذه يتجاوزه سريعا، فقرّر أن يبحث عن آفاق جديدة، أبعد ما يمكن عن الخزي والمذلّة. مازالتْ هناك لوحتان متواضعتان له معلّقتان على جدران النّادي الاجتماعيّ لبارّانْكالسْ. يُقصد منهما أن تكشفا ضفاف نهر الأوروغوايْ. لكنّهما تبدوان مناسبتين أكثر لنهر الدانوب البارد في بلده الأصليّ.

تظهَرُ صورة هولتْ مرّتين أو ثلاثا في عمل سالْفاتييرّا الضّخم. رسمه في المرّة الأولى قائدَ أوركسترا، يرفع العصا الصّغيرة وينظر بنفوذ إلى الأسفل في مكان ريفيّ. وفي لوحة أخرى، كان جالسا وعلى وجهه علامات الرّضى وهو يلتهم بطّيخة صفراء كبيرة تحت سماء أرجوانيّة متّقدة. أخبرنا سالْفاتييرّا أنّ جدالا دار بينهما ذات يوم لأنّه رسم بطّيخة صفراء فقال له هولتْ إنّ عليه أن يرسم الأشياء بألوانها الحقيقيّة. فإن كان البطّيخ ورديّا مثل سماء المساء، فينبغي عليه إذن أن يرسمه كذلك. وقد حاول أبي من خلال حركات ملامحه المتوتّرة، أن يشرح له أنّ البطّيخ الأصفر موجودٌ أيضا. ولكنّ هولتْ ظنّ أنّه يسخر منه. فطرده من البيت. وفي اليوم التّالي، عاد سالفاتييرّا حاملا هديّة في يده، بطّيخة مكوّرة. قطعها نصفين بواسطة مدية أمام هولتْ. وأمام ذهول الألماني، انكشف أمامه شطران صفراوان تماما.

خلال سنوات تدرّبه مع هولت، كان سالْفاتييرّا يتجنّب إخوته

---

(1) انقلاب عسكريّ وقع في الأرجنتين بقيادة الجنرال خوزيه فيليكس يوريبورو (المترجم).

وأبناء عمومته، متجوّلا في أنحاء الرّيف بمحاذاة الشّاطئ. لقد تعرّف إلى صيّادي السّمك الذين يقيمون أكواخا على ضفّة النّهر ويكسبون عيشهم من ركوب الزّوارق وصيد الأسماك بواسطة الحبال والشّباك. ورأى هؤلاء العجائز وهم يحفظون ممتلكاتهم القليلة من المدّ المرتفع عبر تعليقها على الأغصان العالية لأشجار الخرّوب. يظهر صيّادو السّمك في عمله بين أكوام الأسماك الضّخمة التي يُعثر عليها عادة في أنهارنا، مثل سمك النّمر الضّخم (الصوروبي)، بسوالفه الطّويلة، ومثل الباتّل ذي المظهر الشّرقيّ، والبارِغ الأصفر الحامض، والمانْدُوفي صاحب الأنف المجرفة وسمك الكونْجيوبوديدا، بينما كانت السّفينة الحربيّة تتوسّط الأسماك المسلّحة بالأشواك على امتداد أجسامها. بهذه الطّريقة كان سالْفاتييرّا يرسم هؤلاء الصيّادين الذين عرفهم في شبابه، مثل قدّيسين ذوي أسمال، يرسمهم مثل أرباب السّمك السّابح عاليا في الهواء بين الألواح والأوعية والحقائب والمغارف المتدلّية من الأغصان كي لا يجرفها النّهر بعيدا. يرسمهم كما لو أنّ باستطاعتهم جميعا أن يسبحوا في الهواء مثلما يفعلون في الماء: الرّجال والسّمك والأشياء.

ويمكننا أن نتفهّم أيضًا سبب رفضه الذّهاب-رغم أنّه أجبر على ذلك أكثر من مرّة-مع إخوته وأخواته وأبناء عمومته إلى حفلات الرّقص التي تنظّم في المدينة. فقد كان بُكْمه يعزله عن الجميع بشكل جليّ. كما أنّه كان يكره جميع الإجراءات الشّكليّة. لقد رأيته طيلة حياته يلبس نوعين فقط من اللّباس: مِشمل[1] الميكانيكيّ الملطّخ بالألوان وقد كان يرتديه حين يرسم، والسّترة الرّماديّة التي يرتديها عند الذّهاب إلى مكتب البريد، ومنذ أن تقاعد لم يلبسها مجدّدا.

(1) نوع من الملابس يتكوّن من قطعة واحدة تغطّي القسمين العلوي والسّفليّ من الجسم. وتستخدم عادة في العمل بالمصانع والورش. (المترجم).

أظنّ أنّه تعلّم شيئا آخر من هولتْ عن طريق الاقتداء بمثاله أكثر من كونه تعلّما مباشرا، كان نمطًا خاصّا من الهوس بالحرّية، فوضى حيويّة وحسًّا سعيدا بالعزلة، بل واختزالاً للحياة إلى مستوى الضّرورات، وذلك ما جعله يستمرّ في القيام بما يحبّه دون أيّة عوائق.

عندما عاد هولتْ إلى أوروبا، ترك لأبي كمّيّة كبيرة من الطّلاء ولفّات طويلة من القماش لم يتوصّل بعدُ إلى استخدامها. وكان هولتْ نفسه سيقطع هذه اللّفات إلى قطع. ثمّ يبسطها على إطارات مستطيلة ليرسم عليها. ورغم ذلك، فقد قرّر سالْفاتييرّا أن يستخدم القماش بأكمله كي يرسم عليه صورة ممتدّة للنّهر دون أن يقطعه إلى أجزاء.

كانت تلك لفافته الأولى. وقد كان في العشرين من العُمر عندما شرع في الرسم عليها.

(8)

أوّل شيء قمنا به قبل أن نغادر هو منحُ آلْدو بعض البيزوهات كي يعتني بالأقمشة ويحفظ الكوخ. وبعد فترة قصيرة، استطعتُ أنا ولويس أن نترك أعمالنا في بوينس آيرسْ ونعود إلى بارّانْكالس. لم يجد لويس أيّ مشكل في ترك مكتب العدل. أمّا أنا فقد كنتُ مطلّقا. وابني الوحيد يعيش في برشلونة. ولذلك لم يكن أمامي من خِيار سوى غلق المكتب العقاريّ لبضعة أيّام. (وعلى كلّ حال، لم أكن منهمكا في أيّ عمل تقريبا)

أقمنا في بيت أبوينا الذي كان معروضا للبيع آنذاك. وكان قريبا من النّهر، لا تفصله سوى خمس بنايات عن كوخ أبي. وقد قضّينا أيّامنا، بمساعدة آلدو، ونحن نرفع لفّات القماش ونخفضها مستخدمين نظام البكرات وجهازا لرفع المحرّكات عثر عليه سالْفاتييرّا منذ سنوات في محلّ لإصلاح السّيّارات المستعملة. لقد كانت ثقيلة جدّا حتّى أنّنا قدّرنا أنّ كلّ لفّة تزن لوحدها مائة كيلوغرام تقريبا. قال لويس إنّنا بدأنا نهرمُ. وضحكنا، لأنّ مجرّد ثَنْيِ أكمامنا للقيام بجهد جسديّ كان يمنحنا شعورا بالرّاحة.

كنّا كلّما أنزلنا إحدى الأقمشة إلى الأرضيّة، فتحناها ليشرع لويس في التقاط الصّور لأجزاء مختلفة منها. وكانت فكرته تتمثّل في إرسال الصّور مُرفقة برسالة إلى السّلطات الإقليميّة إصرارا على الحصول

على الدّعم الموعود. وإن فشل ذلك، يمكن طلب الدّعم من منظّمة أو إدارة متحف معنيّتيْن بمساندة معرض للرّسم.

من المؤكّد أنّ عرض القماش برمّته في مكان واحد، سيكون من رابع المستحيلات. ولكنّنا فكّرنا أنّه يمكن عرضه في أقسام متفرّقة. فقد عُرض قسمان متتاليان لفترة قصيرة في بوينس آيرس خلال السّتّينيات. ولكنّ سالْفاتييرّا رفض أن يكون حاضرا في ذلك الوقت. فلطالما شعر بأنّه سيكون في الخارج مجرّد شخص غريب: رسّام تشخيصيّ وسط حشد من التجريديين والتّجريبيين، قرويّ يتخلّل فنّانين من العاصمة، ورجلٌ عمليّ بين منظّرين. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كانت تلك الأيّام مليئة بالعروض والتّظاهرات، وبالاهتمامات الجماليّة التي كانت أجنبيّة عنه. وفي مناسبة أخرى، أخذ صديق له وهو الدّكتور دافيلا قسما من العمل إلى مهرجان فنّيّ يقام مرّة كلّ سنتين في بارانا، بعد أن اتّفق مع أبي على اقتسام مبلغ الجائزة في حالة تتويج أثره. وقد تُوّج فعلا. وذهبنا معا إلى مراسم الاحتفال. شعر سالْفاتييرّا بضيق شديد. ولم يعرض أيّ لوحة بعد ذلك أبدًا. إذْ لم يكن مهتمّا بذلك البهرج على الإطلاق. وعلى كلّ حال، فقد كان الأمر يدفعه إلى قطع عمله اليوميّ، ولم تكن له أيّ رغبة في الإحساس بالتقدير والاعتراف، ولا كان يعرف كيف يمكن أن يتعامل معهما. كان فقط يشعر بأن لا علاقة لذلك بالمهمّة التي خصّ نفسه بها.

أعتقد أنّه كان يعتبر عمله شيئا شخصيّا تماما، نوعا من المذكّرات الحميمة وسيرة ذاتيّة مصوّرة. ربّما لأنّه كان أبكم، فإنّه كان يحتاج إلى سرد قصّته الخاصّة على نفسه، ورواية تجربته الذاتيّة في جداريّة لا تنتهي أبدا. لقد كان سعيدا برسم حياته. ولم تكن لديه أيّ حاجة إلى عرضها. فبالنّسبة إليه، أن يحيا حياتَه يعني ببساطة أن يَرْسُمَها.

أعتقد كذلك (وهذا أمر توصّلت إليه الآن فقط) أنّه ربّما كان يشعر بالحرج قليلا لضخامة عمله، فأبعاده الهائلة وامتداده الغريب، يجعلانه أقرب إلى رذيلة مسجّلة أو مجرّد هاجس، من كونه أثرا فنّيا منتهيا. لذلك قرّرتُ أنا ولويس أنّه من الأفضل -بدل أن نرسل صورا مصحوبة برسالة- أن نعدّ منشورا يتضمّن بعض الأجزاء من القماش، ونرفقه بشرح مقتضب وصورة لسالفاتييرّا، كما قرّرنا أن ندرج صورة للكوخ مع اللّفافات المعلّقة كي نقدّم فكرة عن حجم العمل وطبيعة مشروع أبي.

ولكنّنا سرعان ما اكتشفنا أنّه من الصّعب جدّا ضبطُ اختيار لأقسام مختلفة من اللّوحة، لأنّ سالفاتييرّا كان يرسم دون أيّ تقسيمات جانبيّة حتّى يحقّق امتدادا بين مختلف المشاهد. يبدو أنّه كان مهووسا بهذا الأمر. لقد أراد أن يغلّف رسمُه تدفّقَ النّهر والأحلام والطّريقةَ التي من خلالها تستطيع أن تُغيّر الأشياء بشكل طبيعيّ تَماما، دون أن يبدو التّغيّر ناشزا أو غريبا بل مُحتّما كلّيّا، كما لو أنّه كان يكشف التّحوّل العنيف الكامن في داخل الكائن والأشياء والأوضاع.

ومن بين الأمثلة على هذا، جزء يعود إلى تاريخ فبراير 1975. إذ يستهلّ هذا القسم من اللّوحة باحتفال في الهواء الطّلق، في حديقة، تحت الأشجار، حيث نرى أزواجا يرقصون ويضحكون. يبدو أنّ هناك ضجيجا عاليا في الهواء. وهناك العديد من السّكارى ممدّدين على الأرض. ثمّتَ رجلٌ يجذب امرأة باتّجاه الشّجيرات، فيما الرّجال الآخرون يوشكون على الاقتتال: أحد السّكارى كان يلبس زيّا عسكريّا نظاميّا، يبدو في مستوى ركبتي رجل آخر يخرُج من معدته شيء مّا. هناك ضابط آخر أيضا يقبض على ذراع امرأة. والمزيد من الرّجال يتصارعون تحت الأشجار، رجالٌ في أزياء موحّدة يتقاتلون يدا بيدٍ

بواسطة الحراب والسّيوف...أناس يقتل بعضهم بعضًا في حشد كبير فيما تتمدّد على الأرض بعض جثث القتلى. لقد انقلبت اللّوحة الآن إلى قتال حتّى الموت وسط الأشجار المتشابكة. وفي هذا الانتقال من عيد إلى معركة، ينجح الرّسم في جعل المشاهد يقبل التّحوّل كما لو أنّه نتيجة منطقيّة واضحة.

بسبب هذه الاستمراريّة، وجدنا من العسير أن نقرّر كيف نشكّل الصّور. لم تكن للقماش حدود، حتّى في نهاية كلّ لفّة. فهي تنتهي جميعا عند بداية اللّفّة التّالية تماما. ولو كان بإمكان سالفاتييرّا أن يحافظ عليها كلّها في لفيفة واحدة شاسعة لفعل ذلك حتما. ولكن سيكون من المستحيل آنذاك الاعتناء بها أو التمكّن من نقلها.

كُتب تاريخ كلّ لفيفة ورقمها بوضوح على القفا. وفي اليوم السّابق لموعد مغادرتنا، عندما شرعتُ في إعداد قائمة لها، لاحظتُ أنّ هناك لفيفة مفقودة. هناك سنة بأكملها غائبة: 1961. تنتقل التّواريخ على الخلفيّة من 1960 إلى 1962. لم يفوّت سالفاتييرّا يوما واحدا دون أن يرسم. ولهذا من المستحيل أن يتوقّف عن ذلك لسنة كاملة. نظرنا بريبة إلى آلدو. فقال إنّه لا يعرف شيئا عن مكانها. وحتّى إن وُجدت اللّفيفة أصلاً، فقد فقدت منذ زمن طويل حتما لأنّ التّرتيب الذي كانت اللّفائف معلّقة وفقه لم يتغيّر منذ سنينَ. لو كانت قد سرقت حديثا، لكانت الفجوة واضحة. صدّقتُ كلامه، خلافا لأخي. وحاولنا أن نستذكر تلك السّنة. ما الذي حدث في 1961؟ لم نستطع أن نتذكّر أيّ شيء مميّز. في تلك الفترة، كنّا نعيش في منزل قرب الحديقة البلديّة. كنتُ في سنّ العاشرة. أمّا لويس ففي الخامسة عشرة. كانت أختي إيستيلا قد توفّيت من قبل. سالفاتييرّا يعمل في مكتب البريد وأمّي تقدّم دروسا في اللغة الإنجليزيّة...كلّ شيء كان عاديّا. فإن لم يكن

آلدو قد سرق اللّفيفة، فما الذي حدث لها إذن؟ أين يمكن أن توجد؟ هل أدركتها الجرذان، فاضطرّ آلدو إلى إخفائها أو إلقائها بعيدا؟ هل من الممكن أنّ شخصا آخر قد سرقها؟ ربّما أبادها سالفاتييرّا نفسه أو لعلّه باعها أو تخلّص منها؟ مازالت اللّفائف التي عرضت في بوينس آيرس وبارانا هناك. ولم تكن تلك المفقودة أيّا منها. قضّينا بعض الوقت نحاول أن نستنبط ما حدث. ولكن كان علينا في ما بعد أن نتابع عملنا لأنّنا سنعود في اليوم التّالي إلى بوينس آيرس.

(9)

كان سالفاتييرّا في الخامسة والعشرين من عمُره، يعمل في مكتب البريد، حين التقى بهيلينا راميراز، أمّي التي كانت في الواحدة والعشرين، تعمل في مكتبة أورتيز ببارّانكالسّ. اعتاد سالفاتييرّا أن يذهب إلى هناك صباح كلّ أحد ليقرأ عن حيوات الرّسّامين العظام ويبحث عن الكتب التي تتضمّن صورا ونقوشا. على قماش الرّسم الذي يعود إلى تلك الفترة، ثمَّتَ انتقال بطيء من المشاهد اللّيليّة إلى تلك المضمّخة بإشراق الصّباح. أوّلا، هناك صور طبيعيّة مطوّلة لمنظر الشّفق مع نساء سوداوات يغسلن الملابس على ضفّة النّهر. (أخبرنا الدّكتور دافيلا أنّ سالفاتييرّا كان يذهب أحيانا في الصّيف مع الصّيّادين إلى الجهة المقابلة من النّهر في الأوروغواي، حيث تستقبلهنّ مجموعة من غاسلات الثّياب) رسم سالفاتييرّا السّاعة التي تنعكس فيها أولى النّجوم على الماء ويبدأ كلّ شيء في الاتّحاد بالظّلال. في إحدى الأجزاء، يوجد شخص مّا يشعل عود ثقاب وفي العتمة يمكنك أن تلاحظ امرأة تبتسم باستفزاز من خلف الشّجيرات.

بعد ذلك، بدأت المشاهد النّهاريّة تنتهي. كانت تعكس ضواحي المدينة في الفجر بشوارعها الطّويلة التي تحفّها الأشجار وتتسكّع على امتدادها شخوص ناعسة. تتوافق هذه الضّواحي والفترة التي التقى فيها بأمّي. هناك بورتريهات عديدة لها: يكشفها الأوّل جالسة إلى

مكتب المكتبة، عن بعدٍ في آخر القاعة الفارغة والواسعة، ثمّ أقرب من ذلك، وهي مؤتلقة ومنهمكة في مطالعتها... فتاة ذات رموش طويلة لا ترفع رأسها لتنظر إليك إلاّ حين يقترب البورتريه التالي أكثر من ذلك. كانت أمّي تقول دائما إنّ أبي خجول مثل خنزير غينيّ[1] إذْ يمكث في الجهة المقابلة من القاعة، متصفحا كتبه وهو يرسل إليها نظرات خفيّة. اعتادت أمّي أن تقول إنّ بإمكانها أن تعرف اللّحظات التي كان سالفاتييرّا يرسمها خلالها. ولأنّها وجدته عصيّا على القراءة، فقد بدأ جسدها يُستثار وأصبحت واعية تماما بذاتها.

(1) خلافا لما تشير إليه تسميته، ليس هذا الحيوان خنزيرا كما أنّه ليس من غينيا. هو قارضٌ من أمريكا الجنوبيّة سمّي كذلك لأنّ صوته يشبه الصّوت الذي تطلقه الخنازير البرّيّة في غينيا. (المترجم).

(10)

عند اللّحظات الأخيرة، إذ كنّا نوشك أن نغادر إلى بوينس آيرس، توصّلنا إلى لقاء شخص من مقرّ البلديّة، جاء ليلقي نظرة على عمل سالفاتييرّا. كُنّا حريصين على معرفة إن كانوا قد قرّروا في النّهاية مساندة مشروع المتحف، وكنّا مستعدّين في حالة عدم تسلّم أيّ موارد ماليّة أن نحدث شيئا على حسابنا الخاصّ. لقد تُوفّي الدّكتور دافيلا. وتعاقبت حكومتان متتاليتان منذ أن نجح في إدراج اللّوحة ضمن «تراثنا الثّقافيّ» ولم يحدث شيء. تشرف على الحكومة المحلّيّة الآن في بارّانكالسْ حركة «هيّا نذهب» وهي حزب سياسيّ يتكوّن من البيرونيّين المسؤولين على توزيع العقود من أجل المهرجان ومتطرّفين سابقين يهتمّون بإدارة الأموال من أجل مشاريع التّشجير.

كان السكرتير الذي زارنا، يعمل لدى مدير الشّؤون الثّقافيّة. وقد ظلّ يستخدم هاتفه الخلويّ طيلة الوقت الذي قضّاه معنا. عرضنا عليه بعض اللّفائف بعد أن فتحناها فوق أرضيّة الكوخ. وكنت أحاول في كلّ مرّة أن أشرح له الأمر. لكنّ هاتفه يرنّ مرّة أخرى. فيستقبل المكالمة، ويذهب إلى حافّة الباب. و هو يصرخ بجُمل من قبيل: «أخبر المسؤولين في الجمعيّات أنّنا نحن من يملك العجين»[1]. كان يمشي في المكان مشكّلا دوائر دوائر، إذ ينفض ذراعيه ويشتم شخصا مّا في

(1) كناية عن المال، (المترجم).

الجهة الأخرى من الخطّ. ويقترب منّا قليلا. ثمّ يبتعد مجدّدا. ويقول: «اسمعني أيّها الأخ، أولئك الرّفاق لا يملكون حتّى ما يكفي من أجل الغاز».

وفي لحظة معيّنة، بينما كان يُصغي إلى الشّخص الذي يكالمه، دفع بطرف قدمه إحدى اللّفائف قليلا كي يلقي نظرة. وكانت تلك علامة الاهتمام الوحيدة التي كشف عنها. وبعد ذلك، قال إنّ المسألة ينبغي أن تناقش مع المحافظ وربّما يمكن بعث رسالة إلى الحكومة الإقليميّة. «كلّ ما أستطيع أن أقوله إنّه لا مال لدينا. ومن العسير حقّا تلبية حاجتكما. ولكن تقدّما بطلب على أيّ حال». أخبرناه أنّنا قد فعلنا ذلك سلفا. ولكن، كان من الواضح أن لا أحد منهم قد علم عن الأمر شيئا.

قبل أن يعود إلى سيّارته، سألنا إن كنّا على علم بأنّ شخصا يدعى بالدوني -وهو مالك السّوبرماركت المجاور والرّجل المسؤول عن الرّعاية الاجتماعيّة في إدارة البلديّة- يرغب في شراء الأرض. فتذكّرتُ الاقتراح الذي عُرض على أمّي. ألقى الرّجل نظرة سريعة على الكوخ. ثمّ اقترح على الفور أن نبيع القطعة ونخزّن عمل أبي في مكان آخر يمكنه أن يساعدنا في العثور عليه. ومن ثمّ، نستخدم المال لبناء متحف.

لم تكن فيما بدا لنا فكرة سيّئة. قدّم له لويس بطاقته. واتّفقنا أن نناقش الأمر لاحقا. ثمّ رحل. وفي اليوم التّالي، رجعنا إلى بوينس آيرس. وقد احتجتُ إلى أشهر عديدة قبل أن أتمكّن من زيارة بارّانكالسّ مجدّدا.

(11)

لقد رجعتُ في نهاية فصل الشّتاء، بعد أن تسلّمنا دعما من مؤسّسة آدريان رويل. وكلّ ما حقّقناه في الأشهر التّالية هو إجراء اتّصالات مع السنيور بالدوني الذي اقترح مبلغا صغيرا بل فظيعا مقابل الأرض. وحين رفضه لويس، اتّصل به سكرتير مدير الشّؤون الثّقافيّة. لا شكّ أنّه وبالدوني يحافظان على اتّصال مستمرّ بينهما. وقد اقترح علينا مكانا بديلا لتخزين اللّفائف، وهو عبارة عن نصف بناية جهة النّهر... مكان خَرِبٌ ومعرّض للفيضانات. فشكره لويس وأخبره بأنّنا سنتدبّر أمرنا بمفردنا.

أغلقتُ مكتب العقارات. ثمّ أعددنا المنشورات وأرسلناها إلى المطبعة. شرعنا في توزيعها على الأروقة الفنّيّة والمؤسّسات والشّركات. أعدّ مصمّم غرافيك لنا نسخة رقميّة. ثمّ قام لويس بإرسالها إلى مؤسّسات أجنبيّة عديدة. وخلال فترة قصيرة، بدأنا في تسلّم الإجابات.

فكّرنا في طرق عديدة نستطيع من خلالها عرض القماش كاملا. وكانت إحدى هذه الطّرق تتمثّل في ضمّ جميع الأجزاء بعضِها إلى بعض وتمريرها عبر شاشة زجاجيّة ومن ثمّ إعادتها إلى ملفّ آخر كبير الحجم. ولكنّ الأمر سيستلزم مكانا ضخما لإجرائه، ومع هذا النّظام، ما أن تبلغ اللّفة النّهاية حتّى ينحلّ القماش في الاتّجاه

المقابل، كما لو أنّ الزّمن يتدفّق إلى الوراء. ثمَّتَ أيضًا فكرة أخرى لعرض أجزاء طويلة على الأقلّ في مكان مغلق أو رواق دائريّ مثل قصر الجليد في بوينس آيرس. ويوجد كذلك احتمال نشر كتاب ضخم من صنف كتب طاولة القهوة[1] مع صور مُضمّنة داخله.

في البداية، لم تكن المسألة واعدة. كان أوّل من عبّر عن اهتمامه بعمل سالفاتييرّا بعض النّاس من أمريكا الشّماليّة من جماعة كتاب غينيس للأرقام القياسيّة. لقد كتب إليهم لويس مخمّنا أنّهم قد يموّلون معرضا لنا. لكنّ اقتراحهم تمثّل في تثبيت الرّسم كلّه على إسفلت طريق سريعة مهجورة، ومن ثمّ تصويره من الطّائرة المروحيّة. قالوا إن كانت معلوماتنا صحيحة، فإنّنا نملك أطول عمل فنّيّ في العالم. ويمكننا الحصول إذن على مكافآت ماليّة ضخمة. فكّرنا أنّ سالفاتييرّا لم يكن ليحبّ هذا. فهو لم يرسم عمله ليُشاهد من فوق طائرة مروحيّة مثل نوع من المعجزات الهائلة. ولذلك رفضنا اقتراحهم. وانتظرنا الحصول على عروض أخرى.

(لقد قرأتُ في أحدث نسخ كتاب غينيس أنّ أطول لوحة في العالم تتمثّل في رسم مروّع من التيبت، معروض على شاشة في بيكين. يبلغ طولها ستّمائة وثمانية عشر مترا، قام بإنجازها أربعمائة راهب بوذيّ. أمّا عمل سالفاتييرّا فطوله أربعة كيلومترات وهو مبدعه الوحيدُ)

بعد تلقّي مكالمات قليلة من بعض الأفراد الفضوليّين وعدد من المؤسّسات الأرجنتينيّة التي لا يمكن التعويل عليها لأنّ اقتراحاتها لم تتجاوز توفيرَ فضاءات صغيرة لا غير، قَدِمَ اقتراح مؤسّسة رويل من هولندا. كانوا مهتمّين بالأثر لأنّهم بصدد إعداد مجموعة نماذج من الفنّ الأمريكيّ اللاتينيّ. اقترحوا في المنزلة الأولى أن يصوّروا الرّسم

(1) تصنيف لنوع من الكتب يوضع على طاولة القهوة في غرفة المعيشة مثلا أو أماكن مماثلة. (المترجم).

حتّى يعدّوا أرشيفا رقميّا. وبذلك يجعلون الأثر مشهورا في أوروبا كلّها. فإذا ما أثار أيّ اهتمام، يمكنهم ترتيب الأمور لشرائه وتحويله إلى متحف المؤسّسة في آمستردام. وجدنا الفكرةَ، أنا وليس، في غاية الأهميّة وملفتة للانتباه. وكنّا مستعدّين للمضيّ فيها خطوةً. خاصّة أنّ المؤسّسة عرضت علينا، إضافة إلى ذلك، مبلغا محترما من المال.

كان على أحدنا أن يذهب إلى بارّانكالسْ ليشرف على عملهم (الفحص، الرّقمنة وما إلى ذلك). قلتُ للويس إنّني مستعدّ للذّهاب وإنّني أفكّر حتّى أن أسافر قبل أيّام قليلة من الموعد.

«لماذا؟» سألني من طرف الخطّ البعيد بصوت الأخ الأكبر.

«سأبحث عن اللّفافة المفقودة»

(12)

عند وصول الحافلة إلى المحطّة في بارّانكالسْ، كان اللّيل وشيكا. صعدت إلى التّاكسي باتّجاه البيت، وقد كان مُظلمًا ما يزال دون كهرباء. ولكن كانت لديّ شموع اشتريناها منذ أشهر، إضافة إلى الماء الذي عاد بفضل اتّصال أجراه لويس مع صديق قديم له يعمل في قصر البلديّة. بدت الغرف باردة وشديدة الرّطوبة إلى ما لا نهاية له.

لم أنم جيّدا في تلك اللّيلة. فقد ضايقتني أشباح البيت. كانت ملابس أمّي وممتلكاتها الأخرى موضوعة في أكياس بلاستيكيّة كبيرة مخصّصة للقمامة في إحدى غرف النّوم. لقد جمَعَت طيلة حياتها مختلف أنواع الأشياء وخزّنتْها هناك. وفي المقابل، لم تكن مُمتلكاتُ أبي تتجاوز حقيبةً صغيرةً واحدة: ساعة يدويّة، فرشاة حلاقة، مشط، فرشاة أسنان، سبعة قمصان... وكأنّها ممتلكات شخصيّة لأحد السجناء. صورة زواجهما ما زالت معلّقة في إطارها على الجدار. بدا كلّ منهما يافعا ومتضايقا في إحدى تلك الصّور السّوداء والبيضاء التي أرسلتْ بعيدا ليتمّ تلوينها. لقد تزوّجا سنة 1945 دون حماس كبير من قبل عائلتيهما. فلم تكن جدّتي لأمّي راغبة في تزويج ابنتها لمجرّد عامل في مكتب البريد، وأكثر من ذلك فهو أبكم. أمّا جدّاي لأبي فلم يكونا متحمّسين لرؤية ابنهما يتزوّج ابنة أرملة وحيدة غير معروفة في مجتمع بارّانكالسْ. لكنّ القدوم الوشيك لأخي لويس الذي

كان ينمو آنذاك في بطن أمّي دفعهم إلى ابتلاع آرائهم دفعة واحدة.

رسم سالفاتييرّا مراسم الاحتفال-تلك التي وقعت في كنيسة مهدّمة منذ سنوات منصرمة- منظورا إليها من فوق، كما لو أنّ شخصا مّا يراقبها من برج الجرس. تجلس العائلتان متقابلتين وموزعتين على جانبي الممرّ الرّئيسيّ. عائلة أبي ممتدّة ومتينة تحتلّ معظم مساحة القاعة، أقارب توحّدهم الأوردة الحمراء السّميكة مثل الجذور. وجهة عائلة أمّي تكاد تكون أثيريّةً تتناثر فيها بعض الخالات والمعارف الذين تمّت دعوتهم في اللّحظات الأخيرة، توحّدهم تقريبا شعيرات دمويّة غير مرئيّة. وكانت كلّ شبكة من هاته العروق موصولة من الجدّات إلى والديّ. ألقى الكاهن خطبته مشيرا إلى بطن أمّي حيث امتزجت السّلالتان. ثمّتَ وريدٌ يتّجه مثل سهم من ساعد أبي الأيمن إلى الخارج صوب النّهر.

(13)

لقد أتيح لي أن أتفحّص الكثير من هذه الأشياء عن قرب خلال الأيّام القليلة التي قضّيتُها في الكوخ قبل قدوم الهولنديّين من مؤسّسة رويل. وكلّما ظهر آلدو، كان يساعدني في إنزال زوجين من اللّفائف التي أبسُطها على الأرضيّة ثمّ أستغرق في التّحديق إلى كلّ تفصيل فيها. شعرتُ أحيانا أنّني على وشك التعرّف على أبي للمرّة الأولى. كانت هناك بورتريهات لأناس لم أرهم من قبل أبدا: رجال ذوو وجوه خضر يسكرون في متجر، نساء عجائز يلبسن الأسود ويجلسن معتدلات، رجال الغاوتشو[1] بملابسهم القديمة يكاد كلّ واحد منهم أن يكون حيّا في حركاتهم تلك إذ يحدّقون من أعماق مساء الماشية الموسومة أو يعملون بجدّ في ذبح الثّيران الصّغيرة، واقفين هناك بسواعدهم الملطّخة بالدّماء قرب بهيمة نُحرت باتّجاه السّماوات. من جهة أخرى، ذكّرني الرّسم بلحظات من حياتنا: كلابٌ كنّا نملكها في البيت ولكنّني نسيتُ أمرها تماما أو النّار العظيمة سنة 1958، تلك التي أدركت حدود جنوب بارّانكالسْ. هناك تقريبا تسعة أمتار من القماش رسم سالفاتييرّا عليها مَرْجًا مُشتعلا بدخان يتصاعد إلى الجهة الأخرى مع ذلك النّور المقدّس الغريب الذي رأيناه جميعا في ذلك المساء بينما وقفت عائلتنا تتفرّج عند حافّة الطّريق.

(1) لفظ يُستخدم عادة لوصف سكّان أمريكا الجنوبيّة في سهول السافانا أو مراعي باتاغونيا (المترجم).

نظرتُ إلى كلّ هذا. فتزاحمت عليّ الأسئلة دفعة واحدة. ما هذا التّشابك بين الحيوات والنّاس والحيوان والنّهارات واللّيالي والكوارث؟ ما الذي يعنيه كلّ ذلك؟ كيف يمكن أن تكون حياة أبي؟ لماذا تراه شعر بالحاجة إلى التّكفّل بمهمّة ضخمة كهذه؟ ما الذي حدث للويس ولي كي ننتهي في هذا الرّماديّ-حياةِ سكّان المدينة-رغم أنّ سالفاتييرّا كان قد احتكر جميع الألوان المتاحة؟ بدَونا متوهّجين بالحياة في ذلك النّور المشرق من الرّسم في بعض البورتريهات التي خصّنا بها ونحن نأكل قليلا من الكمثرى الخضراء عندما كنتُ صبيّا في العاشرة، أكثر من حياتنا الحاليّة بملفّاتها القانونيّة وعقودها. كان الأمر كما لو أنّ الرّسم قد ابتلعنا جميعنا: أنا ولويس، أختي إيستيلا، وأمّي. كلّ تلك الأيّام القرويّة المضيئة قد امتصّها قماش لوحته. ثمّتَ جودةٌ تتجاوز القدرات الإنسانيّة في عمل سالفاتييرّا. لقد كان خارقا للعادة إلى حدّ بعيد. ولطالما وجدتُ من العسير أن أبدأ شيئا جديدا حتّى لو كان أبسط المهامّ على الإطلاق مثل الاستيقاظ من النّوم صباحا. كنتُ أعتقدُ أنّ عليّ أن أعمل كلّ شيء في نطاق هائل مثل أبي أو لا أفعل أيّ شيء. وأنا أعترف أنّني عادة ما اخترت عدم القيام بشيء، الأمر الذي قادني إلى الشّعور بأنّني لا أحد.

(14)

طلبتُ من آلدو أن يعيرني الدّراجة القديمة التي رأيتُها في الكوخ. غيّرتُ الأنابيب الدّاخليّة وفككّتُ الإطارات ثمّ دهنتُها بالشّحوم. لم أركب درّاجة منذ أيّام السّبت البعيدة تلك... في منتصف الثّمانينيات حين كنتُ معتادا على القيادة مع ابني في غابة باليرمو في بوينس آيرس.

قدتُ الدّرّاجة دون هدف في أنحاء بارّانكالسْ، أدير الدّوّاسات ببطء، مقارنا بين ذكريات البلدة التي نشأتُ فيها والمدينة التي تحوّلَتْ إليها الآن. ولم تكن لديّ أيّ فكرة من أين أبدأ البحث عن اللّفافة المفقودة.

مقارنة بالعمل كلّه، لم يكن هذا الجزء يمثّل تقريبا أيّ شيء. ولكنّني كنتُ أرغبُ في العثور عليه لأنّ هذه الفجوة قد أزعجتني مثل قفزة في تدفّق مستمرّ. إنْ كانت أربع لفافات أو خمس قد فُقدت، لما كلّفتُ نفسي محاولة العثور عليها. ولكن بما أنّها واحدة فقط، فإنّ الرّسم كان قريبا جدّا من تحقيق التّدفّق المطلق الذي لم يشأ سالفاتييرّا أن أبذل جهدا من أجله. لم يكن هناك أيّ مقطع عموديّ في العمل. لقد كان تواصلا واحدا ونهرا واحدا.

تسكّعتُ لفترة في مركز المدينة. وعند الحادية عشرة، وجدتُ نفسي قرب الكاتدرائيّة. ولذلك قرعتُ جرس منزل عمّاتي، بناتِ

عمومة سالفاتييرّا اللّواتي حضرن في جنازة أمّي. لم يعدن تلك الفتيات اليافعات اللّواتي يتعرّين في ظلال اللّوحة. إنّهنّ الآن شبيهات بالممرّضات الإسبانيّات وهنّ يلبسن ملابس الحداد الخاصّة بالأجيال السّابقة. فكّرتُ أنّ بإمكانهنّ أن يخبرْنني بشيء. لكنّني لم أكن أعرف ما هو.

لم يكنّ مبتهجات حقّا لرؤيتي. «صورة طبقَ الأصل لأبيك». قلن وهنّ يحدّقن فيّ مرارا. لم أستطع أن أدرك إن كان ذلك أمرا جيّدا أم سيّئا. ولكن بما أنّه رأيهنّ فهو على الأرجح يُفيد معنًى سيّئا. حاولتُ أن أرتّب نفسي. فقد أفقدتني الدّراجة أنفاسي وجعلَتْ ملابسي مجعّدة. طلبْن منّي أن أجلس في غرفة تضوع برائحة النّفتالين. قرّرتُ أن أخوض في الأمر. فسألتهنّ إن كان سالفاتييرّا قد باع أو أبعد إحدى لفافات عمله. فلم أجد لديهنّ أدنى فكرة.

«ولكن تفحّص جيّدا في ذلك الكوخ. يمكنك العثور تقريبا على أيّ شيء هناك» قالتْ إحداهنّ ملقية نظرة عارفة على أختها.

«لماذا؟»

«حسنا... لطالما كان شخصا مُولعا بتخزين الأشياء»

لم يكنْ لديهنّ الكثير ليُضِفْنَهُ. كان هناك شيء من الاستهجان والرّقابة في نبرة أصواتهنّ. ولقد أرجعته إلى الشّعور العامّ بالرّفض الذي طالما أظهرته العائلة إزاء أبي. كان عليّ أن أمكث فترة أطول وأنا أستمع لحكايات المرض وطرق العلاج غير العلميّة قبل أن أستطيع المغادرة. أردْن دعوتي لاحتساء الشّاي في اليوم التّالي. ولكنّهن لم يلححن عليّ حين أخبرتهنّ أنّ لي موعدا مُنتظَرا.

لقد قرعتُ كذلك جرس بيت الدّكتور المتوفّى دافيلا. لم تدعني أرملته المرتابة المتجهّمة إلى الدّاخل بل أكّدت لي أنّ زوجها لم يملك يوما أيّ رسم من رسومات سالفاتييرّا.

«لفافة» قلتُ. «لفافة طويلة من قماش الرّسم»

«لا أيّها الرّجل الشّابّ، لا أعرف أيّ شيء عن ذلك». أجابتني من خلف باب موارب.

عندما عدتُ إلى الكوخ، فعلتُ ما أوصتني به العمّات وفتّشتُ بين جميع قطع الخردة. فعثرتُ تحت القارَب على زورقي الصّغير الأزرق. بدا الأمر كما لو أنّني لمحتُ شبحا. في الصّيف، اعتاد أبي أن يأخذنا معه إلى النّهر في عربة تسحبها تيزا، الفرس البيضاء التي اعتدنا أن نتركها تحدّق في الأماكن الخاوية قرب البيت. حين نصل، كان أبي ينزع الطّوق عنها ويقودها إلى ضفّة النّهر، ماشيا فوق المرتفعات الرّمليّة وتحتها، حيث نكون بصدد لعب لعبة تخويف أسماك الرّقيطة السّامّة. ثمّ نغطس في الماء. ولم يكن يُسمح لنا بالذّهاب بعيدا عن الضّفّة لأنّ النّهر يتضّمن انخفاضات مفاجئة ودوّامات كثيرة. كان زورقي يسعني وحدي فقط. اعتدنا أن نوثقه بحبل طويل. ثمّ أطفو عبر النّهر في خضمّ التّيّار. كان سالفاتييرّا يهزّ يده في إشارة للوداع متظاهرا بأنّني انطلقتُ في رحلة طويلة. ثمّ يسحبني إلى الخلف بواسطة الحبل. لقد فعلنا ذلك مرارا. وفي يوم مّا، أضربنا عن الذّهاب مجدّدا. غرقتْ أختي إيستيلاّ بينما كانت تسبح مع بعض صديقاتها قرب الجسر القديم. وبعد ذلك، لم تعد أمّي تريدنا أن نعود إلى النّهر.

أثناء عمليّة التّفتيش، عثرتُ كذلك على المقاعد المصنوعَة من أعقاب الخشب والتي اعتاد سالفاتييرّا أن يخرجها كلّما زاره أصدقاؤه في الكوخ. كان من عادتهم السّهر مطوّلا وهم يسكرون. كانت أمّي ترسلنا أحيانا لجلبه فيسمح لنا بالمكوث لفترة ثمّ يرسلنا مجدّدا إلى طريق العودة. لا بدّ أن عمري كان عشر سنوات في ذلك الوقت عندما كنتُ أنظر إلى أولئك الرّجال بمزيج من الإعجاب والخوف. لقد كانت

مجموعة تأتي مع ماريو جوردان، صديق أبي الذي يملك زورقا آليّا، وقد كان أبي يقرضه ركنا من الكوخ حتّى يخزّن فيه بضاعته. كان يملك عُثْنُونًا[1] ومسدّس ريفولفير قديما من عيار 38 ويظهر أحيانا وهو يحمل أكورديون. ستّة أو سبعة منهم كانوا يجتمعون معا وبعضهم الآخر كان من النّوع العابس الذي لا يتكلّم إلاّ نادرا مثل سالازار الباسكي أو ذلك الرّجل الأسود الذي يُدعى فيرمين إيبانيز. ورغم ذلك، فما أن ينسكب شيء من الكحول في جوفهم حتّى يصيروا أقلّ تحفّظا. أحدهم كان يسأل سالفاتييرّا أن يعرض لهم جزءا من العمل. وبعد أن يدفعهم إلى الإلحاح، يضع سالفاتييّرا طرف القماش على بكرة ثمّ يسحبه ببطء. كان ماريو جوردان يعزف على الأكورديان بينما يتدفّق الرّسم مثل عازفي البيانو أيّام الأفلام الصّامتة. في تلك اللّحظة، يكون جميعهم قد أدرك الثّمالة. فيشرعون في الضّحك كلّما تعرّفوا إلى شخص في اللّوحة أو يهدهدهم الإيقاع البطيء للموسيقى. يحدّقون بعيون زجاجيّة من الذّهول في المشاهد الشّبيهة بأحلام، تلك التي رسمها أبي: جزر، قطعان من الأحصنة تجتاز النّهر، قنوات، ركّاب بحناجر جريحة، مستنقعات مليئة بالحشرات ومعارك دامية.

ذات ليلة دار جدال بين الجماعة. فشقّ فرمين إيبانيز قماش اللّوحة بسكّينه وقام بتهديد سالفاتييرّا. ولحسن الحظّ، تقدّم جوردان بينهما وتوصّل إلى تهدئة الوضع. ثمّ تواصلت الأمسية لفترة أطول دون أيّ مشاكل أخرى. وعاد الجميع في النّهاية إلى بيوتهم. أتذكّر جيّدا أنّني خلال اللّيالي اللاّحقة، كنت أستيقظ فزعا مقتنعا بأنّ إيبانيز يقف في ظلام غرفة نومنا، ثابتا مثلما رأيتُه في الكوخ، شاهرا سكّينه.

(1) اللّحية الصّغيرة أسفل الذّقن. (المترجم).

(15)

كان أحدَ أكواخ الجزّ القديمة لدى جدّي. لكنّ الصّوف لم يكن رائجا حقّا في المنطقة. وبعد أن انتهى زمنُ تربية الماشية أصبح الدّجاج والفواكه الحامضة أكثر تحقيقا للرّبح. ولذلك بقي الكوخ مهجورا إلى أن أخذه أبي في الأربعينات.

يقع الكوخ جنوب بارّانكالس، قرب الممرّ المؤدّي إلى النّهر على مرتفع لا يبلغه الفيضان أبدا. اعتاد سالفاتييرّا أن يفتحه في السّابعة صباحا. ويظلّ يرسم حتّى العاشرة. ثمّ يغلقه ليذهب إلى العمل في مكتب البريد. ويعود ليفتحه مجدّدا في الخامسة مساء. وكنتُ أذهبُ إلى هناك مرارا بعد المدرسة لأنّني أحبّ أن أساعده في إعداد القماش.

تتواصل هذه العمليّة ليومين أو ثلاثة أيّام حسب الطّقس. في البداية، يرسلني لقطع بعض القصب من بستان الخيزران الذي ينمو في الأرض الخربة خلف الكوخ، حيث يوجد الآن مبنى السوبر ماركت. وكنتُ أشعر بالخوف لأنّ حفيف النّسيم في أوراق الأشجار الجافّة يبدو مثل همس الموتى أو وقع خطوات لا مرئيّة. نخيطُ القصب في الحافّتين العليا والسّفلى للقماش. ثمّ نوثقه بقضيبين قديمين نأخذهما من عربة الحصان. وكنّا نستعمل قطعا بطول خمسة أمتار. بعد ذلك نفصل أحدَ القضيبين عن الآخر ببطء. وعندما يصبح القماش مشدودا مثل طبل، نكسوه بطبقتين من الغراء. وحين يجفّ،

ندهنه بطبقات أخرى عديدة من غراء أُعدّ من الجصّ والكلس، كنّا قد نخلناه سلفا داخل قميص قديم. وكان ذلك الجزء الذي أفضّله: أن أشاهد الغراءَ الخاثر يملأ أجزاء القميص ثمّ يقطر سائلا مُصفى. أمّا الرّائحة التي يُطلقها فلم أختبر مثلها أبدا سوى في بعض متاجر الأدوات المنزليّة القليلة في بوينس آيرس. لطالما احتفظنا بقماش أو اثنين خلال جميع مراحل الإعداد. كنّا نحمل الأقمشة إلى الخارج إزاء أشعّة الشّمس ونتركها في الضّوء لنرى أيّ الأجزاء لم يُغطّ بالغراء بشكل تامّ حتّى نضيف إليها قليلا من الخليط. وحين ننتهي من ذلك، يضمّ سالفاتييرّا كلّ قطعة إلى الأخرى مستخدما آلة خياطة حتّى تشكّل جميعًا لفافة واحدة. لطالما رغب في الحصول على لفافة فارغة واحدة على الأقلّ كي يتمكّن من العمل دون هاجس نفادها.

في أحسن الحالات، يمكن أن يكون القماش مادّة بيضاء تماما مُعدّة من أن أجل أن يرسم عليها. أمّا في أسوئها، حين لا يكفي المال إلاّ لتغطية مصاريف البيت، فقد يكون مجموعة من الأكياس التي نطلبها من مخازن الحبوب بعد أن تُفرغ من حمولتها. وبين هذين الحالتين المتطرّفتين، يمكن لسالفاتييرّا أن يعدّ قماش الرّسم من أيّ شيء: قماش مشمّع قديم، كساء الأريكة، مفارش الأسرّة أو المظلاّت.

لفترة خلال السّبعينيات، كان هناك صديق للويس يمتهن أشغالا غريبة عند المحطّة اعتاد أن يحضر كومة من المشمّع الأخضر الممتاز. وكان أبي مبتهجا حقّا إذْ يخصّص هذا النّوع من المشّمع لتجميع البضاعة الصّلبة والقاسية. وكان يدفع له مبلغا جيّدا في المقابل، وهو ما يساعد صديق لويس على تحصيل بعض البيزوهات. وكان يقول إنّها قد مُنحت له في مستودع السّكك الحديديّة.

وذات صباح، ظهر رجلٌ ضخم الجثّة أمام الكوخ وهو يحمل مفتاحا كبيرا في يده. كان يريد أن يعرف أين يوجد مشمّع شاحنته.

ظلّ يصرخ ويضرب بمفتاحه جدران الكوخ المعدنيّة المتموّجة. قال إنّه قد أُعلمَ بأنّها تنتهي دائما إلى هذا البيت. فأشار سالفاتييرّا -الذي رسم سائق الشّاحنة لاحقا في شكل سايكلوب[1] متكرّش- إليه كي يهدأ. ولكن بما أنّ الرّجل كان يبحث عن تفسير، فيما لم يستطع أبي أن يقول شيئا، فقد اشتدّ غضبه أكثر. وعلاوة على ذلك، حين رصد المشمّع المسروق على وشك أن يُقصّ ويُبسط، هددّ أبي بسحق رأسه فيه. اضطرّ لويس إلى أن يشرح له أنّ أبي أبكم. ومن المحتمل أنّ سائق الشّاحنة لم يمض أبعدَ من ذلك لأنّ سالفاتييرّا قد أبان براءته عبر بقائه هادئا. وفي النّهاية، حملوه على الجلوس وشرحوا له المسألة. أراد السّائق أن يحصل على عنوان الفتى حتّى يذهب للعثور عليه. ولذلك اضطرّ أبي إلى الكذب إذْ أخبره عن طريق لويس أنّه لم يكن يعرف مكان إقامته. قال السّائق إنّه سيضبطه في المحطّة لأنّ المشمّع قد سُرق هناك ليلا بعد أن أفرغ هو العربة المقطورة. حملني أبي على العدو باتّجاه البيت كي يدفع ثمن المشمّع. ثمّ غادر سائق الشّاحنة وهو يعدّ أمواله.

أرسل سالفاتييرّا في طلب الفتى. وعندما ظهر وهو يركب درّاجته، أمسكه أبي من ذراعه وأجبره على المشي على امتداد الشّارع. أشار إليّ كي أذهب معهم. شعُر الفتى بالرّعب. فظلّ يحدّق فيّ منتظرا أن أشرح له الأمر الذي يُقدم عليه أبي.

«إلى أين يأخذني؟» هذا ما أراد معرفته.

كان سالفاتييرّا يشدّه كما لو أنّه يمسك بطرف خوذة لا مرئيّة.

«إلى الشّرطة» أجبتُ الفتى.

---

(1) اسم معرّب عن اليونانيّة. يفيد في الميثولوجيا مسوخا من جنس الجبابرة وهم عمّال مهرة يصنعون الصّواعق وأسلحة الآلهة ويحقّقون الأعمال الكبيرة والضّخمة. (المترجم).

«لماذا؟»

حرّك سالفاتييرّا ملامح وجهه وهو يضع قفّازا ثمّ يغلقُ أصابعه على كفّه الواحد تلو الآخر بشكل صارم.

«لن أسرق شيئا بعد الآن. أقسم لك يا سيّدي» صرخ الفتى يائسا.

وصلنا إلى موقف عند إحدى الزوايا. فنظر أبي إلى الصّبيّ في عينه. ورفع يدا إلى كتفه كما لو أنّه يحمل شيئا. ثمّ أشار إلى صدره.

«يقول إنّه يريدك أن تعمل لصالحه»

وافق الفتى. أوكل سالفاتييرّا له مهمّات عديدة خلال أسبوعين. ثمّ دبّر له وظيفة في مكتب البريد. وقد مكث هناك خمس عشرة سنة قبل أن ينتقل إلى مقرّ البلديّة. إنّه يشغل هذه الأيّام منصبا هامّا يدير من خلاله عملا لا يختلف كثيرا عن ذلك الذي كان يقوم به مع المشمّع. لقد كان هو صديق لويس الذي تدبّر أمر إرجاع الماء إلى الكوخ عندما كنّا نقضّي أسبوعا خارج بارّانكالس.

لا بدّ أنّ هناك مئات الأمتار من عمل سالفاتييرّا قد رُسمت على المشمّع المسروق من الشّاحنات التي اعتادت أن تفرغ خيراتها في محطّة القطار أوائل السّبعينيات.

(16)

قدم الهولنديّون بعد أيّام قليلة من شروعي في البحث عن اللّفافة المفقودة. وكانا اثنين يُدعيان بوريس وحنّا. وصلا في شاحنة مؤجّرة وقد أحضرا معهما ماسحا ضوئيّا ضخما من متحف رويل يستطيع أن يُصوّر الرّسومات رقميًّا في أبعادها الأصليّة. كان يرتديان صنادل وسترات مميّزة. وقد بدت حنّا أكثر انفتاحا من بوريس لخوض التّجربة الأمريكيّة اللاتينيّة، لكنّها رحلتْ سريعا إلى ميسيونس[1] لأنّها لم تكن على الأرجح مطلوبة لذلك العمل الأوّليّ. أعتقدُ أنّها قد هربت من الصّراصير الشّهيرة في النّزل الكبير لبارّانكالس.

كانت مهمّتهما تتمثّل في مسح مقاطع مختلفة من الرّسم ثمّ إرسالها في نسختها الرّقميّة إلى هولندا وانتظار التّعليمات بعد ذلك. أنجز بوريس وآلدو كلّ العمل. كان كلّ شيء بينهما يمضي على ما يرام رغم عدم قدرتهما على تبادل كلمة واحدة، ورغم أنّ رؤيتهما معًا تثير الانتباه والدّهشة: بوريس الطّويل النّحيل بلطخة الصّلع تلك المحاطة بستارة طويلة من الشّعر الأشقر، وآلدو القصير البدين ذو المكنسة السّوداء الخشنة. يُنزلان اللّفافات الكبيرة بينهما ويضعانها في الماسح الرّقميّ الذي يقوم بنسخ مترين من قماش الرّسم كلّ خمس دقائق. حاولتُ في اليوم الأوّل أن أساعدهما. لكنّني أدركتُ سريعا أنّني كنتُ

(1) هي إحدى محافظات الأرجنتين. تنقسم إلى سبع عشرة مقاطعة. (المترجم).

بكلّ بساطة أعيق طريقهما كلّما كانا يحملان لفافة أو يحاولان تعديلها وسط الماسح. فاكتفيتُ بالمراقبة فقط بعد ذلك، ويداي مضمومتان على صدري وأنا واقف إلى جوار حنّا التي كانت أغلب الظنّ تشعر بنفس الشّيء.

تحدّثتُ إليها قليلا في ركن منزو من الكوخ، بينما كان الآخران يتابعان عملهما. وبيّنتُ لها كيفيّة احتساء مشروب المتّة[1] . ثمّ أجبتُ عن أسئلتها المتعلّقة بسالفاتييرّا والنّهر. حدّثتني بإسبانيّتها، وقد بدت كأنّها تلفظ الحروف إلى داخل الفم لا إلى خارجه، عن دراساتها العليا حول الفنّ الباروكي في الأمريكتين واهتمامها بتأثير اليسوعيّين كما حدّثتني عن عملها مع بوريس رغم أنّهما قد أصبحا الآن منفصلين.

لن أنكر أنّني شعرتُ برغبة في اندفاعة وجيزة مع امرأة بذلك الجمال. ولكن، لم يحدث شيء بيننا. لم أقم بحركة واحدة مطلقا. وبالإضافة إلى ذلك، فإنّني لا أعتقدُ أنّ الذّهاب إلى السّرير مع رجل مثلي قد مثّل جزءا من بحثها عن الغرابة الأمريكيّة اللاتينيّة. وفي اليوم التّالي، غادرَتْ لزيارة الأطلال اليسوعيّة بسان اغْناسْيو في ميسيونس.

---

(1) مشروب ساخن من فئة المنبّهات يعود منشؤه إلى دول أمريكا الجنوبيّة. وهو يعدّ من أوراق نبتة البهشيّة البراغوانيّة. (المترجم).

(17)

مع انطلاق المسح الرّقميّ للرّسومات، قرّرتُ الذّهاب إلى مكتب البريد، حيث عمل سالفاتييرّا لسنوات عديدة. لقد انطلق في العمل سنة 1935، حين أخذه إلى هناك أحد إخوة جدّي الذي لم يتحمّل رؤيته وهو يتسكّع حول النّهر دون القيام بأيّ شيء مُفيد. لم يُرسله جدّي إلى المدرسة. وقد قبل ألاّ يُصبح منتجا للمال مثل إخوته. وبدلا من ذلك، ترك سالفاتييرّا يتسكّع هنا وهناك دون أن يراقبه مجرّد المراقبة. لعلّه كان يرجو أن تفضي نتائج عدم اهتمامه به إلى نهايتها الطّبيعيّة. ولكن، خلافا لما توقّعه الجميع، فإنّ أبي لم يعش حياته بشكل سيّئ. فبفضل حرص أبناء عمومته على تعليمه، استطاع الكتابة والقراءة بشكل مثاليّ. كما أنّه كان ماهرا في كتابة الرّسائل. وفي الحقيقة، لقد نشأ بشكل أفضل من إخوته الذين لم تفدهم كثيرا ملكاتهم في الفروسيّة والصّيد باستخدام الوهق حين تعلّق الأمر بإدارة الأراضي التي ورثوها في البداية ثمّ اضطرّوا إلى بيعها لاحقا بسبب الإفلاس. انطلق سالفاتييرّا في العمل في مكتب البريد مساعدَ كاتب، وشيئا فشيئا استطاع أن يكتسب لنفسه منصبا مهمّا.

تمّ استقبالي في مبنى البريد القديم بريبة. سألتُ موظّفين كثيرين إن كانوا يتذكّرون خوان سالفاتييرّا أو يعرفون أيّ شخص قد عمل هناك قبل سنة 1975، السّنة التي تقاعد فيها. فأرسلني كلّ واحد

منهم إلى شخص آخر عبر أروقة متجهّمة ذات أبواب عالية جدّا ومكاتب واسعة. بدتْ أصواتنا خافتة جدّا هناك وغير ملائمة للمكان، كما لو كنّا نوعا من الأقزام يعيشون في بناية كانت مأهولة بالعمالقة فيما مضى.

استقبلتني في إحدى المكاتب امرأة عجوز ذات عظام ناتئة. كانت تمتصّ سيجارة بين شفتيها ولها عينان واسعتان خضراوان. لقد تأثّرت جدّا حين شرحتُ لها من أكون وقالت إنّها تفهم الآن لم شعُرَت عندما رأتني لأوّل وهلة بأنّ وجهي مألوف لديها. دعتني إلى الدّاخل. وتحدّثنا معا لفترة.

كان اسمها فرجينيا روكامورا. وقد بدأت عملها هناك عندما كانت في سنّها العشرين. أرتني الغرفة التي كانت يوما مّا مكتب سالفاتييرّا. (ولقد عرفتُها سَلَفًا إذ كان يصطحبني معه مرّات عديدة إلى هناك عندما كنتُ صبيّا) أخبرتني كم كان كلّ واحد منهم يحترمه ويقدّره. ثمّ أحضرت لي صورة فوتوغرافيّة قديمة لفريق مكتب البريد قد التقطت في المدخل. وكان بينهم سالفاتييرّا وهو يبتسم.

«وتلك هي أنا. انظر كم كنتُ جميلة في ذلك الوقت». قالت وهي تحدّق فيّ بلمعة من اللّطف والحزن في عينيها.

إنّها على حقّ. لقد كانت امرأة جميلة.

عندما سألتُها إن كانت تعلم أيّ شيء عن رسم سالفاتييرّا، إن كان قد قال لها مرّة إنّه ينوي أن يتخلّص من جزء مّا من عمله، أخبرتني بأنّها لم تكن تعرف أنّ سالفاتييرّا يرسم أصلا. ثمّ رافقتني إلى بوّابة الخروج. وفي الطّريق، أرتني لوحة على الجدار تتضمّن قائمة طويلة من الأسماء خُطّ بينها اسم أبي. وكانوا جميعًا موظّفين متقاعدين قد عملوا في مكتب البريد لأكثر من أربعين سنة.

(18)

وسط الشّارع، شعرتُ فجأة بالإرهاق. ركبت الدّرّاجة وقدتها ساهما حتّى أقصى المدينة، حيث تبدو الشّوارع كما لو أنّها رُسمت من قبل سالفاتييرّا: دكاكين الزّوايا ذات الكلس المتقشّر، النّاس الجالسون في سكون الأرصفة، الأشجار المشذبة من جذوعها أكثر من اللاّزم بقليل، والأبقار المربوطة بين خنادق السّقاية وهي تحدّق إلى العالم. كنّا نمرّ أحيانا من هنا عندما يصطحبني إلى المدرسة على مقود درّاجته من بيتنا الذي كان مجاورا للحديقة البلديّة.

فجأة، وعلى امتداد مجال غير معبّد من الطّريق، شرع كلبٌ أسودُ في النّباح محاولا أن يعض قدمي. لمحتُ رجلا عجوزا ذا لحية العُثنون ينهره صارخا من بوّابة بيته وهو يحمل حقيبة في يده. ثمّتَ شيء مّا فيه جعلني أمعن النّظر وأقترب منه أكثر. بدا لي شبيها جدّا بماريو جوردان، صديق أبي. تقدّمتُ إلى الأمام صارخا في الكلب النّابح:

«هل أنت ماريو جوردان؟»

«نعم»

«أنا ميغال سالفاتييرّا، ابن خوان»

«آه، كيف الحال؟»

كان ماريو يلبس سترة وسروالا وصندلا بالحبال، يحاول أن يغلق حقيبة تطفح بالأشياء. لا ريب أنّه يناهز الثّمانين.

«هل تغادر؟» سألتُه.

«نعم» قال محدّقا في أنحاء الشّارع. «هلاّ ساعدتني»

مدّ لي حقيبته. فوضعتها على مقود الدّرّاجة. ثمّ خرجنا معا نمشي ببطء.

«إلى أين نحن ذاهبان؟»

«إلى هناك، عند زاوية المقبرة»

لأكثر من مرّة، كان يلتفتُ وينظر خلفه.

«فلنسرع قليلا. ثمّتَ من يلاحقني» قال وهو يحاول عبثا أن يسرّع خطاه. التفتُّ حولي. لكنّني لم أستطع أن ألمح أيّ شخص.

«من يلاحقكَ؟»

«شخص أدين له بمبلغ من المال. لا تنظر خلفك»

كان يجرّ قدميه بينما يمشي. ومن حين إلى آخر، كان يرفع يده ليشير إلى الاتّجاه الذي ينبغي علينا اتّباعه كما لو أنّه يقبض على الهواء ليسحب نفسه إلى الأمام.

«هل تتذكّر سالفاتييرّا؟» غامرتُ بطرح السّؤال.

«لم لا بحقّ الأرض؟» أجابني بوميض من الغضب. ثمّ سكت ولم يقل شيئا إلى أن بلغنا زاوية الشّارع.

«هل تتذكّر أنّه اعتاد أن يرسم؟»

«آها»

«هل حدث أن علمتَ بأنّه قد تخلّص من إحدى لفافات رسمه؟»

«إنّ لديهم قوارب أكثر حداثةً وسرعةً هذه الأيّام. ولكن فلنمض إلى محطّة القطار على أيّ حال»

كرّرتُ سؤالي.

«سنتحدّث في هذا الأمر لاحقا» قال «سنتحدّث فيه لاحقا»

ولكنّني بدأتُ أفقدُ صبري في تلك اللّحظة. كان من الخطأ أن أصطحبه منذ البداية إلى المكان الأوّل. وها هو الآن يريدُ الذّهاب إلى محطّة القطار. قلتُ له: «لم يعد هناك أيّ قطار يا جوردان»

«لقد تمّت إعادته. هناك واحد في تمام السّادسة والنّصف»

أسندنا الدّرّاجة إلى جدار المحطّة. وصعدنا الدّرج. لقد نما العشبُ بين شقوق الأرضيّة الإسمنتيّة. كان كلّ شيء مغلقا. ولا أحد هناك. لم يكن هناك أيّ قطار منذ خمس عشرة سنة. جعلني جوردان أحمل الحقيبة ثمّ أضعها مجدّدا على الرّصيف. كانت مسارات القطارات تغصّ بالأعشاب الضّارّة.

«فلنعد يا جوردان. لم يعد هناك أيّ قطار» قلتُ له.

«هناك واحد في تمام السّادسة والنّصف. هل تملك ساعة؟»

«نعم. إنّها توشك أن تكون السّابعة» لقد كذبتُ.

«لا يهمّ. إنّه يأتي متأخّرا قليلا في بعض الأحيان»

لم أعرف ما أقوله. ولذلك قرّرتُ أن أمازحه. «هل ستسافر مرتديا تلك السّترة؟»

نظر إلى الأسفل ثمّ قال: «حسنا سأكون ملعونا حينئذ. لن يسمحوا لي بالرّكوب في هذا المظهر. هل تعيرني قميصك؟»

عندما رفضتُ، أراد أن يفتح حقيبته ليتفقّد إن كان قد أحضر شيئا مّا يمكنه أن يلبسه. كان الوقت يمرّ حتّى بدأ اللّيلُ يقتحم المكان. وفجأة سمعنا صوتا ينادي: «جدّي» تجمّد جوردان.

«أظنّ أنّ هناك من يناديك»

«أوه. تلك الخرقاء» قال دون أن يلتفت إليها.

وصلت امرأة شابّة إلينا. اعتذرت. وقالت إنّ العجوز ينفلتُ من البيت هكذا من حين إلى آخر. أخبرتُها أنّ جوردان كان صديقا لأبي وأنّني أريدُ أن أطرح عليه بعض الأسئلة.

«تعال لرؤيته ذات صباح. لن يكون حينئذ تائها إلى هذا الحدّ»

حملت الحقيبة في يدها. ثمّ أمسكت جوردان من ذراعه. وقادته بعيدا. مشيتُ لوهلة داخل المحطّة. ثمّ غادرتُ سريعا. رؤية كلّ هذه وقد غدت مهملة جعلتني حزينا.

(19)

يمكن لسالفاتييرّا أن يقضّي ساعة دون أن يرسم. يقف أمام قماش الرّسم أو قرب الموقد الحديديّ المستدير الذي يُدفئ ركنا من الكوخ خلال الأشهر الأكثر برودة أو يجلس على كرسيّ حلاقة كان قد اشتراه سابقا أثناء مزاد علنيّ. كان يقف أو يجلس مفكّرا، ربّما يخطّط لما سيرسمه لاحقا. وفجأة، تمرّ ذبابة تطنّ في الهواء فينتشلها من الجوّ دون أن يخطئ هدفه ولو مرّة واحدة.

كان يحبّ أن يبحث في المذياع عن الإذاعة المحلّيّة التي تعزف الشامامي، البولكا الباراغوانيّة والشاماريتاس[1] بينما يكرّر المقدّمون الإعلانات نفسها مرّات ومرّات، أو يعلّقون على المهرجان إلى ما لا نهاية له. ومع تلك الموسيقى الضاجّة في الخلفيّة، كان يجلس أحيانا وهو يدفن رأسه في كفّيه، حتّى أنّ أيّ شخص لا يعرفه يمكن أن يعتقد بسهولة أنّه محبطٌ ومكتئب. ولكنّه في الحقيقة كان مستغرقا في عمله. وبشكل مفاجئ تماما يقف ويشرع في رسم بعض الخطوط أو يتصفح كتب النّقوش والصّور التي كانت تستجلبُ الغبار على رفّ الكتب. أتذكّر خلال السّنوات التي جمع فيها مكتبة فنّيّة، خاصّة بعد 1960 حين ظهرت الطّباعة بالألوان، فقد جمع آنذاك مجموعةً تسمّى «سادة الفنّ العظماء». كان يحبّ فنّانين كثيرين ومختلفين: فيلاسكيز،

(1) أنماط من الموسيقى الفولكلوريّة الخاصّة بالأرجنتين والباراغواي. (المترجم).

زورباران، كارافاجيو (وقد كان يملك نسخة من لوحته «تحوّل القدّيس بولس» معلّقة على عمود)، ديغا، غوغان، كانديدو لوبيز وحتّى تحوّلات إيشر: صورٌ لأفاريز رومانيّة وجداريّات مينويّة. كان مهتمّا بقِطَع المذبح في العصر الوسيط حيث يظهر شكل مّا مرّات عديدة في نفس المنظر الطّبيعيّ. وكان يحدّق في هذه الرّسوم ساعات وساعات. أعرف أنّه كان يحاول أن يتعلّم دون انقطاع. يتشرّب كلّ شيء يمكن أن يُفيد منه بحرّيّة تامّة ويحوّله إلى شيء يخصّه. لم تتوفّر الفرصة لسالفاتييرّا أبدا كي يزور متحفا. لذلك فقد كانت تلك الكتب طريقته الوحيدة في مواصلة التّعلّم.

من حين إلى آخر، كان يبحث فوق الطاولة الكبيرة عن شيء مّا، وقد كانت تلك الطاولة سابقًا في مزرعة للتّبغ حيث اعتاد أن يجمع الأوراق الجافّة والحشرات والصّور والعظام وحطام السّفن من النّهر أو تلك الأشياء التي يعثر عليها: جذور، قطع بالية من الخشب، حجارة مكوّرة من أسلحة الهنديّين المحلّيّين، قطع من الزّجاج الملوّن وجميع أنواع الأشياء الأخرى. يلتقط إحدى هذه الأشياء. ثمّ يتفحّصها مليّا حتّى يرسمها على قماش لوحته.

أتذكّر أنّنا خرجنا سويّا ذات مساء بعد العاصفة لنتمشى قليلا. فعثرتُ على واحدة من تلك الخنافس ذات القرون الكبيرة التي تعرف بالثّيران الصّغيرة وهي تزحف على الطّريق وسط الوحل. أخذتها معي إلى الكوخ. وفي اليوم التّالي، لاحظتُ أنّ سالفاتييرّا قد رسم نسخة هائلة منها تملأ قماش الرّسم من أعلى إلى أسفل. وعبر تضخيم الأشياء بهذه الطّريقة (في الحقيقة كان ينظر إليها أحيانا من خلال عدسة مكبّرة) نجح في التقاط ذلك المظهر الذي يشبه الآلات الباردة لدى بعض الحشرات. كانت الخنفساء تبدو مثل سفينة حربيّة بقوائمها الشّائكة وعيونها الصّغيرة القاسية وتلك القرون الهائلة التي تعمل ككمّاشة

تمسك بالفريسة عاليا... سلاح قاتل تماما على جسد صغير مُتراصّ.

هذه الدّراسات عن النّباتات والحشرات تبدو مثل مسوّداتٍ أنجزها الرّبّ قبل الخلق. ففي البداية تأتي الدّراسة المفصّلة ليعسوب -على سبيل المثال- كما لو أنّ سالفاتييرّا كان بصدد اختراعه وإدماجه للمرّة الأولى تماما في عالم رسوماته. يرسمه بألوان مختلفة بمنظور فوقيّ وتحتيّ وآخر مقابل. ولا تمرّ أسابيع قليلة، عندما يبدو أنّه قد نسي أمره تماما، إلاّ ويظهر اليعسوب بشكل طبيعيّ ومثاليّ، أصغر ولكنّه حيّ، ومندمج في خلفيّة إحدى المشاهد.

لطالما شعرتُ بالذّهول أمام الطّريقة التي تدخلُ بها الأشياء إلى العمل وتغادرُه. كانت اللّوحة موكبا واحدا طويلا في الهواء الطّلق، حيث تستطيع الكائنات أن تختفي فجأة وتعود من جديد بعد فترة من الزّمن. يحدث عادة شيء مّا يشبه هذا الأمر في الموسيقى إذْ تعاودُ بعض الموضوعات الظّهور مجدّدا مع إجراء تبديلات عليها.

رسم سالفاتييرّا مرّة أرنبا برّيا كنتُ قد عثرتُ عليه. ورغم أنّ الأرنب قد مات لاحقا فوقي، فإنّ سالفاتييرّا قد رسمه مجدّدا نائما بين الأعشاب. «هل هذا هو أرنبي؟» سألتُه فأومأ برأسه. «أين كان مختبئا؟». قلتُ فأشار إلى الألوان والخطوط.

من المحتمل أنّه بسبب هذا التّدفّق اللاّنهائيّ للقماش، أجد من العسير أنّ أسمّيه لوحة لأنّ ذلك يستدعي وجود إطار وحدود تحيط بأشياء معيّنة. وهذا هو تحديدا ما أراد سالفاتييرّا تجنّبه. لقد كان مسحورا بغياب أيّ حدّ أو حاجز وبالطّريقة التي تتواصل وفقها فضاءات مختلفة فيما بينها. الحدود محذوفة من عمله: كلّ كائن تحت رحمة جميع الكائنات الأخرى محاصر بقسوة الطّبيعة. كلّهم فرائس دون استثناء.. حتّى البشر.

أراد سالفاتييرّا أن يخلق الانطباع بأنّ أيّ شيء ما أن يدخل إلى القماش حتّى يعبر الفضاء المرسوم متقدّما على امتداد العمل ومعاودا الظّهور في كلّ مرّة. لا شيء ولا أحد في حماية من هذا، ولا حتّى المشاهد وسط بيت أعدّ ليكون مغلقا أو آمنا. ثمّتَ دائما شخص مّا كامن في العتمة يتجسّس أو رجل نائم بينما تنزلق شياطين كوابيسه السّقيمة عبر مرايا غرفة النّوم. ليس ثمَّتَ «داخل» أو بيت. كلّ شيء معرّض لعالم الألوان المتعاظم بشكل مستمرّ.

كان سالفاتييرّا يرسم كلّ يوم. وفي يوم السّبت، يخطّ التّاريخ بالأزرق أسفل النّقطة التي يُدركها. يتوصّل في بعض الأسابيع إلى رسم خمسة أمتار. وأحيانا، يرسم مترا واحدا. لكنّه لا ينجز أقلّ من ذلك أبدا. يتغيّر حجم عمله بحسب التّفاصيل التي يتطلّبها كلّ جزء. لم يتوقّف أبدا لأنّ قماش الرّسم نفسه لا يتوقّف مطلقا بالنّسبة إليه. وقد بدت تلك الطريقة أداتَهُ في التّخلّص من أيّ وقفة تعترض الرّسّامين. يبدو الأمر كما لو أنّ القماش ينفتح بمفرده باتّجاه اليسار بطريقة لم يكن قادرا على السّيطرة عليها. لم يسمح لنفسه أبدا بالرّجوع إلى الوراء. إن لم يعجبه شيء مّا كان قد أنجزه، فإنّه يرسمه مجدّدا ويحدث فيه تغييرات ولكنّه لا يعود إلى الوراء أبدا. اعتبر أنّه من المستحيل تغيير أيّ شيء قد رسمه سلفا كما لو أنّه الماضي نفسُه.

أحيانا يكون اندفاع الأشياء إلى الأمام مثل سيل جارف قويّا جدّا إلى درجة أنّ الأشياء تبدأ في الميلان وفقدان توازنها. هناك أقسام من القماش قد رسمت بشكل عرضيّ يسحبها اندفاع تيّار الحياة وكأنّ قوّة الزّمن أعظم من قوّة الجاذبيّة.

غياب التّوازن هذا، أصبح أكثر وضوحا بعد وفاة أختي سنة 1959. في البداية أخذ سالفاتييرّا يرسم زوايا خاوية ومتجهّمة من الرّيف

مليئة بأشجار الشانار والشّجيرات الشّائكة. وتلك، كانت الحلقات الكثيفة حيث كلّ سنتيمتر منها يبدو حيّا بشكل شرس. تظهر في إحداها فتاة صغيرة تمكث دون حركة بينما تتسلّق كوكبة من النّمل ساقها ويحيط برأسها سرب من الدّبابير، ثمّ يخنق وجهها. يمثّل الفضاء برمّته صراعا بين كائنات تعض وأخرى تلسع. ويستخدم كلّ واحد منهم الآخر ليحيا ويتكاثر.

بعد ذلك، بدأ سالفاتييرّا يرسم أختي بشكل أقلّ ألما: غارقة كما لو أنّها نائمة، يطهّرها النّهر، دافئا وممتلئا بالمياه الموحلة. في عمله، كان سالفاتييرّا يطلبُ أن يرسم بورتريه للنّهر وفي المقابل أخذ النّهر ابنته ذات الاثنتي عشر عاما. كان يحملها بطيئا في تصلّب. ولم يكن هناك أيّ شيء يمكن فعله لإنقاذها منه. هكذا كان قد رسمها: إيستيلا غارقة في مجرى المياه تحت أشجار الصّفصاف، إيستيلا بين الأسماك الضّخمة، شعرها عالق في القصب عند حافّة المياه يمرّ على جفونها المغلقة تيّار الماء الهادئ، إيستيلا وهي تكاد لا تُرى تحت سطح الماء تطفو بين السّحب المنعكسة على صفحته.

هنا بدأ كلّ شيء يتسطّح بفعل الاندفاع الهائل لريح الزّمن. اتّخذ النّاس فجأة هيئة عرضيّة إذ يجرفهم تيّار المياه اللامرئيّ. تتقصّف أغصان الأشجار وتنحني الحيوانات والأمطار وجميع الأشياء إلى جهة واحدة، وكأنّها جميعًا غير قادرة على المقاومة.

(20)

لم يكن هناك جرس في بيت جوردان. ولذلك صفّقتُ بيديّ، فتقدّم نحوي جروٌ أصفر فضوليّ، ثمّ لحقه ذلك الكلبُ الأسود. كان البيت يقع في خلفيّة أرض صغيرة، وهو عبارة عن مبنى مربّع بغُرفتين وواجهة إسمنتيّة عارية، وإلى جانبه تقف عريشةُ عنب تمنح الظّلال. كنتُ على وشك أن أغادر حين سمعتُ شخصا يعطسُ. كان جوردان في الدّاخل. لكنّه لم يستطع سماعي. ناديتُ عليه. ولم تكن هناك أيّ إجابة مرّة أخرى. فتحتُ البوّابة. ودخلتُ. شرع الكلبُ يزمجرُ ويثبُ لكنّني حاولتُ المشي دون النّظر إلى الأسفل في اتّجاهه. وحين اقتربتُ من المنزل، أمسك بسروالي عند القدم. فبدأتُ أصرخ: «ابتعد عنّي». لكنّه لم يفعل. ثمّ ظهر جوردان بشعره الأشعث. فنهَرَ الكلب وأبعده عنّي. ثمّ نظر إليّ في ذهول.

-«أنا سالفاتييرّا. هل تتذكّرني؟»

-«آها...»

-«اعذرني إن دخلتُ إلى بيتك على هذا النّحو. ولكنّني كنتُ أصفّقُ و...»

-«تعال وادخل».

دخلنا إلى غرفة، يبدو أنّها أُعدّت في الأصل لتصبح مطبخا. كانت خالية من أيّ ضوء، ولم يكن فيها غير طاولة ومقاعد قليلة.

وقد التصقت بالجدار مرآة صغيرة مدوّرة وروزنامة تتضمّن صورا لمتسابقين من رعاة البقر وهم يعرضون مواهبهم. جلستُ على مقعد بينما وضع جوردان قليلا من الماء لإعداد مشروب المتّة. لاحظتُ أنّ يده اليمنى كانت ملفوفة بضمّادات. جلس عند الزّاوية القصيّة من الغرفة في انتظار أن يغلي ماء الشّاي.

«أمازلتَ تعزف على الأكورديون؟»

«لا» أجابني وقد انحنى ليُخبرَ شيئا مّا خلفه. «أتمرّن الآن على استخدام بندقيّة الصّيد»

كان يصوّبُ نحوي بندقيّة ذات ماسورتين. لقد تمّت سرقتي ذات مرّة في سيّارة تاكسي في بوينس آيرس. صوّبوا مسدّس ريفولفير باتّجاهي لكنّني لم أره أبدا لأنّه كان مضغوطا إزاء ضلوعي. لا بدّ أنّ الرّجل كان شرطيّا لأنّه يملك شعرا قصيرا. كما أنّه بدا هادئا. أمّا الآن، فالوضع مختلف. عجوزٌ خرِفٌ بيدين مرتعشتين يصوّب سلاحا معدّا لتفجير خنازير الماء نحوي تماما.

بدأتُ أقف على قدميّ، وأنا أسأله الحذر.

«اجلس وإلاّ فجّرتُ رأسكَ»

جلستُ. وظلّ يحدّق فيّ. «إذن سالفاتييرّا...أمازلتَ تطاردُ الشّيء القديم ذاته؟»

«أيّ شيء؟»

«رسمُك الصّغير ذاك»

«نعم. ولكن لم لا تضع سلاحك جانبا جوردان. يمكننا أن نتحدّث في الأمر بسلام. لا حاجة إلى تهديدي»

«أنتَ مدينٌ لي»

«مدين لك؟»

«لست سوى أحمق مُسَيطَر عليه»

«لا أعرف عمٍّ تتحدّث. هل ذلك السّلاح مشحون؟»

«خرطوشتا أورِبيَا من عيار 16مم. طلقتان. الأولى لجعلكَ تتعذّبُ والثّانية لإنهائك»

«اهدأ أيّها الرّئيس. سأغادر الآن. وغدا دون شكّ سوف أحضر لك ما أنا مدين به لك. اتّفقنا؟»

«لم نتّفق على شيء» أجابني غاضبا.

مكثتُ صامتا دون حركة. كان الماء يغلي. وأصابع جوردان ما تزال على الزّناد. كان يصوّب سلاحه باتّجاه رأسي لكنّ ثقل الفوهتين جعله ينخفض شيئا فشيئا باتّجاه معدتي. فيقوم برفعه في كلّ مرّة.

«إنّك كاذبٌ وخائنٌ في نفس الوقت. الرّجل الذي لم يستطع التّكلّم في الماضي لم يعد أبكمَ الآن!»

«لستُ خوان سالفاتييرّا يا جوردان. أنا ميغال...ابنه»

«وأنا الجنرال بيرون[1]. أنتَ مدين لي بنصف حمولة حصان أبيض. تلك التي كانت مخزّنة في الكوخ»

«عن أيّ حصان أبيض تتحدّث؟»

«لا تحاول أن تلعب دور الأحمق يا خوان. إن كنتَ تريدُ رسمَكَ فإنّني أريدُ حصاني الأبيض»

«هل تملك الرّسم؟»

«لا. ولكنّني أعرف من يملكه. أحضر لي الويسكي الذي يخصّني. ثمّ سننظر في الأمر»

«كم من الويسكي؟»

---

(1) خوان دومينغو بيرون: رئيس جمهوريّة الأرجنتين لفترتين. الأولى بين عامي 1946 و1955. والثّانية ابتدأت سنة 1973 وانتهت بوفاته. (المترجم).

«الحقائب الأربعون التي تدين بها لي»

«حسنا، سأحضرها غدا». قلتُ ذلك وأنا أتأهّب للوقوف من مقعدي مرّة أخرى.

«ابْقَ حيثُ أنت»

جلستُ في مكاني مجدّدا.

«أتريدُ أن تعرف لم أشعر أنّي أقتُلُكَ؟ كم مرّ من الوقت ونحن نعرف بعضنا يا خوان؟»

«كم؟» سألتُ.

«منذ كنّا بهذا الطّول. لقد كنّا بمثابة أخوين. نقضّي النّهار كلّه سويّا عند النّهر. كنّا شريكيْن. ثمّ أردتَ أن تنفصل عنّي. ولقد قبلتُ الأمر. أليس كذلك؟»

توقّف قليلا، منتظرا أن أجيبه. لكنّني لم أقل شيئا.

«هل كنتَ تعلم أنّ إيبانيز وفاسكويز أرادا قتْلكَ؟»

«لا»

«جعلتُهما يقسمان أنّهما سوف يتركانك وشأنك. ولكن حين أوصدتَ الكوخ دوني... أغضبني ذلك جدّا يا تشي. لا أعرفُ كيف استطعتُ أن أسامحك على ذلك»

صمتَ الرّجل العجوز وهو يحدّق فيّ. ثمّ أردف: «إذن أنت مدين لي بأكثر من حصان أبيض صغير يا خوان. إنّك مدينٌ لي بحياتك»

لم أقل شيئا. وفجأة كسر الصمت وقع خطوات أقدام في الرّواق. إنّها حفيدة جوردان.

«أمازلتَ تعبثُ بتلك البندقيّة مجدّدا يا جدّي؟» قالت ذلك. وانتزعتها منه، كما لو كانت تفتّك لعبة من بين يدي طفل. ثُمّ نظرتْ

إليّ. ورفعت الإناء من الموقد. وأضافت: «هل أخافك باستعمال السّلاح؟ لا تجزع؟ » ثمّ همستْ: «لقد أفرغها أخي من الذّخيرة. دعني أرى يدك يا جدّي». قالتْ بصوت عال. وشرعت تتفقّد ضمّاداته. «لقد كنتَ تعبثُ بها. أليس كذلك؟ عليك أن تترك الضّمّادات دون أن تلمسها. وكن حذرا مع ذلك الإناء. المقبض مكسور. فاحذر أن تحرق نفسك ثانية»

«سأغادر الآن. وداعا» قلتُ مسرعا باتّجاه الباب.

كان الكلبُ يتشمّمني محاولا أن يعضّني في طريق الخروج. ولكن بعد الرعب العظيم الّذي اجتاحني خشيةً من القتل، فقد صار أمر الكلب في غاية الودّ واللّطف.

(21)

قدتُ درّاجتي صوبَ الهاتف العموميّ كي أهاتف أخي. لم أكن أعرف السّبب، لكن كلّ ما كنت أعرفه بعد أن انقضى الخطر هو أنّني صرتُ أرتعش دون توقّف. كتبتُ الرّقم بصعوبة. وعندما رفع لويس السّمّاعة، أخبرته بأنّني التقيتُ جوردان. بالكاد تذكّر عمّن أتحدّث. أخبرته أنّ جوردان هو من سرق اللّفافة المفقودة انتقاما من سالفاتييرّا لأنّه لم يسمح له بمواصلة استخدام الكوخ لتخزين السّلع المهرّبة. لم يفهم لويس من كلامي شيئا. كنتُ قلقا جدّا. وظلّت الكلمات تتعثّر بين شفتيّ. «أعتقدُ أنّ أبي كان مهرّبا». اتّقد لويس غضبا لكلامي. وقال لي إنّني مجنون. وإنّه من المفترض أن أكون أكثر انتباها لما أقول. وسألني من أين كنتُ أتّصل به. باختصار لقد كانت محادثة عقيمة.

عندما وصلتُ إلى بيتنا القديم، وجدتُ أنّه من المستحيل تجنّب التّفكير في الأمر. كانت أمّي تحدّق فيّ من البورتريه المعلّق على الجدار. لم تكن تودّ سماع ولو كلمة واحدة عن جوردان وعصابته. وما أن تعلم بوجودهم في الكوخ حتّى ترسلني أنا أو أخي لويس لاستدعاء سالفاتييرّا. ولطالما اعترضت على صداقتهم. كان سالفاتييرّا يعرفهم منذ طفولته. ولذلك، كان من العسير عليه أن ينأى بنفسه عنهم. وفي النّهاية، نجحت أمّي في جعله يغلق باب الكوخ دونهم. إنّ قدراتها في الإقناع بطيئة ومتدرّجة. لكنّها تنتهي بالفوز دائما.

كانت يعنّ لها دائما أن تخبرنا بأنّها تنحدر من سلالة الزّعيم فرانشسكو راميراز. ولم أستطع أبدا أن أرسم شجرة خاصّة بذلك الفرع من العائلة. لقد مات جدّي بُعيْد ولادة أمّي. ومن المفترض أنّه ابن الشّقيق الأكبر لراميراز. ليس هناك طريقة للتّثبّت من الأمر. إنّ ادّعاء أمّي لقرابته والطّريقة التي كانت تعاملنا بها (أنا ولويس) وأبي أحيانا كانا كافيين لإثباته. لقد نمت عبر السّنوات لتصير أكثر جفافا وقسوة. ثمّ طبعتها وفاة أختي بالقسوة إلى الأبد. فلم نرها بعد ذلك تبتسم مُطلقا.

وما لم تتدخّل في عوالم رسمه، فإنّ سالفاتييرّا كان يتيح لها أن تتصرّف وفق مشيئتها. ألذلك كان جوردان يلقّبه بالمسَيطر عليه حين كان يظنّ أنّه يتحدّث معه. هل كان جوردان وأصدقاؤه مهرّبين؟ سارقي ماشية؟ لصوص أحصنة؟ وهل كان سالفاتييرّا بشكل مّا شريكهم؟ هل كان أبي مهرّبا؟

حاولتُ أن أتّخذ قيلولة. لكنّني لم أستطع. كنتُ أتقلّبُ في سريري بينما يلاحقني كلّ ما قاله الرّجل كما لو أنّ إشاراته ترسخ على صور القماش والصّورة التي عهدتها عن سالفاتييرّا.

وفي النهاية خلصتُ إلى أنّه عمل معهم بالضرورة لفترة أو لأخرى في مهن سوداء وعلى الأرجح في تهريب حقائب الويسكي من نوع الحصان الأبيض. لا ريب أنّ الكوخ يعتبر مكانا آمنا لتخزين البضائع المهرّبة، فلا أحد يمكن أن يشكّ في الأبكم سالفاتييرّا، موظّف مكتب البريد، المواطن الشّريف المحترم للقانون، باستثناء أولئك العمّات بتعليقاتهنّ المستهجنة عن الكوخ في ذلك اليوم. الآن تذكّرت ذلك التعليق: «يمكنك أن تجد أيّ شيء تقريبا هناك»

من المؤكّد أنّ جوردان قد شعر بأنّ سالفاتييرّا قد خانه عندما

أوصد باب الكوخ دونه. ولهذا السّبب ربّما سرق منه إحدى اللّفافات. كان من الواضح أنّ سالفاتييرّا قد توجّه إليه في طلبها. لكنّ جوردان رفض الاستجابة له. ولعلّه لم يكن يملكها أيضا. كان إيبانيز وسالازار يريدان قتله. ثمّ تذكّرتُ فجأة كيف أنّ فرمين إيبانيز قد مزّق قماش اللّوحة في تلك اللّيلة. حاولتُ تذكّر السّنة التي عاينتُ فيها ذلك المشهد. كان عمري آنذاك عشر سنوات أو إحدى عشرة. عيد ميلادي الحادي عشر كان سنة 1961، سنة اللّفافة المفقودة. فعدتُ إلى الكوخ لأفتّش عن اللّفافة الممزّقة.

لم يكن بوريس وآلدو هناك. إنّهما يعودان إلى العمل في تمام السّاعة الثّالثة. فسرعان ما اعتاد الهولنديّ على اتّخاذ قيلولة خلال النّهار. ولم يكن بإمكاني، في انتظار قدومهم، سوى إنزال لفافة واحدة. لذلك، سحبتُ لفافة 1960 وفتحتها ببطء لكنّني لم أستطع أن أرى أيّ تمزّق أو معالجة فيها. كانت تعكس في بعض مَقاطعها بورتريهات لأختي الغارقة. فشعرتُ بارتباك شديد عند رؤيتها، لأنّها بدتْ لي ما تزال حيّة تسبح بعينين مغمضتين فيما كان التيّار يجرفها بعيدا. كنتُ في التّاسعة من عمري عندما ماتت إيستيلا. ولم أحتفظ منها سوى بذكريات غائمة، طفلة تلعبُ في البيت أو تغيظ أمّي كلّما رفضت أن تأكل.

لديّ صورتان بالأسود والأبيض لها. إنّها دائما هي نفسها، متجمّدة في اللّحظة ذاتها. ولشدّة ما نظرتُ إلى الصّورتين لم تعد أيّ منهما تعني لي الآن شيئا. لذلك تأثّرتُ كثيرا حين رأيتها مرسومة بالألوان وبتلك القدرة لدى سالفاتييرّا على تصوير الأشياء التي يحبّها بضربات قليلة من فرشاته فيدفعها إلى الحياة. إنّ صُوَرَهُ تنزلق وتتحرّك رافضة أن تثبُت في مكانها. تتدفّق باتّجاه نهايتها الخاصّة حتّى تذوب في المشاهد الطّبيعيّة.

عندما جاء آلدو، ساعدني في إنزال لفافتي 1959 و1962. كان هناك شكّ صغير حول الأمر: اللّفافة المفقودة كانت تلك التي مزّقها إيبانيز.

(22)

في اليوم التّالي ذهبتُ خلف الكوخ إلى السوبر ماركت وبحثتُ عبر رواق المشروبات الكحوليّة. كان لديهم مشروب الشيفاز ولكن لا وجود للحصان الأبيض. وكان لديّ من المال ما يكفي لقارورة واحدة فقط. ولكن إن كنتُ أرغبُ حقّا في الحصول على معلومات، فإنّه لا يمكنني أن أطرق باب جوردان بيدين فارغتين. ولذلك اشتريتُ واحدة.

في الخارج، كانت هناك شاحنة تُعيق حركة المرور بينما تحاول الرّجوع إلى الوراء نحو رصيف الشّحن. وقفتُ أحدّق فيها. كان من المستحيل على الشّاحنة الدّخول. تقدّم إليّ رجل متكرّش بكُمّين ملفوفين إلى أعلى. لقد كان بالدوني، صاحب السوبر ماركت.

«متى ستبيعني ذلك الكوخ يا سالفاتييرّا؟» سألني.

«حسنا... الأمر صعب قليلا»

«هل تريد أن تأتي معي إلى مكتبي حتّى نتحدّث في الأمر بهدوء؟»

«أنا مستعجل قليلا»

«كما تشاء. ولكنّك ترى كم نحن في حاجة لغرفة من أجل تخزين السّلع فيها. كم من المال تودّ مقابل قطعة الأرض؟» سألني بشكل مباشر.

«ليست للبيع في هذه الفترة. هناك أناس يعملون داخل الكوخ على أثر أبي الفنّيّ»

«نعم...إنّه تمثال أو شيء من هذا القبيل. أليس كذلك؟»

«لوحات رسم»

«ذكر الرّجل البدين شيئا مّا عنها»

لا ريب أنّ الرّجل البدين هو سكرتير الشّؤون الثّقافيّة. عندما سكتُّ، نظر بالدوني إلى أسفل. وتمتم: «أعطيك عشرة آلاف بيزو مقابل القطعة»

لم يكن ذلك عرضا سيّئا جدّا. حدّق فيّ بالدوني مجدّدا.

«حسنا» قلتُ «كما تعرفُ أنا أدير مكتب عقارات في بوينس آيرس... واقتراحك...»

«في بوينس آيرس؟»

«نعم»

«ما من مجال للمقارنة بين الأسعار في العاصمة وتلك المتوفّرة هنا»

«نعم. لكن...» أخمدتُ صوتي. ثمّ أردفتُ. «على كلّ حال، ما أن ينتهي العمل حتّى يغادر الفريق. فنستطيع بيعها آنذاك»

«وكم سيدوم الأمر؟»

«أوه...فترة طويلة»

ابتسم بالدوني، مغتاظا على نحو مّا. ودّعتُه. ومضيتُ حاملا القنّينة وهي تتدلّى في كيس بلاستيكيّ من مقود الدّرّاجة.

(23)

كان جوردان خارج بيته، مستندا إلى السّياج يلبس نظّارة وشعره مسرّح بعناية. ومن حسن الحظ، لم تنبح الكلاب.

«صباح الخير». قلتُ متثبّتا إن كانت البندقيّة تقع في مجال رؤيتي.

«وصباحك» أجابني وهو يحدّق فيّ دون أن يتعرّف إليّ.

«أنا ميغال سالفاتييرّا. ميغال. ابن خوان سالفاتييرّا»

«آه. كيف الحال؟» سألني، وهو يبسط يده على السّياج.

«أحضرتُ لك قارورة ممّا يدينُ به أبي لك» مددتُ له زجاجة الويسكي. فأخذها في ذهول.

«ولكنّني لم أشرب منذ سنوات. شكرا لك. خُذها معك. فإن أمسكتني حفيدتي بهذه القارورة، لن تكون الأمور على ما يرام»

وقفتُ هناك والقارورة في يدي. ولم أعرف ما أقوله. بدا أنّه متملّك لوعيه في ذلك اليوم.

«جوردان، هل تتذكّر رسم سالفاتييرّا؟»

«نعم ذلك الشّيء الطّويل الذي كان ينجزه دائما على لفافات القماش؟»

«نعم. هل تعلم أنّ إحدى تلك اللّفافات مفقودة»

«لا ريب أنّها عند إيبانيز»

«فرمين إيبانيز؟ الرّجل الأسود؟»

«هذا صحيح...الرّجل الأسود. لا أعلم إن كان ما يزال حيّا إلى الآن»

«أين يمكنني أن أجده؟»

«لطالما اعتاد المكوث عند النّهر، إلى جانب ملعب الكرة الحديديّة. وكان يذهبُ هناك أحيانا حين يكون المكان مغلقا. فيظلّ يطوف ويصرخ عاليا مُلقيا رهاناته في النّسيم الرّقيق مُحدّثا نفسه»

«لا أحد هناك، فكيف يعرض الرّهانات؟»

«نعم، لا أحد. ولكنّك تعلم أنّنا لا نعاني من نقص في العجائز المجانين هنا»

«إذن تعتقد أنّ إيبانيز يملك اللّفافة؟»

«إنّه هو من سرقها منه» قال جوردان ضاحكا. «أراد أن يحرقها. لكنّني نصحته بأن يبيعها: فيم سيفيدك إحراق لفافة الرّسم؟ بعْها واربح قليلا من العجين. ولكن لطالما كان إيبانيز غبيّا»

«لماذا سرقها؟»

«من يدري؟ إنّها ألاعيب الأطفال»

«الأطفال؟ لقد كانوا على مشارف الخمسين عندما حدث الأمر؟»

«نعم. لا بدّ أنّهم كانوا ثملين إذن. لم يكن إيبانيز يصحو من السّكر»

«كم من سنة قد مرّت تقريبا على هذا الأمر؟»

«وكيف لي أن أعلم؟ طنّ من السّنوات. لم نر سالفاتييرّا بعد ذلك. عبرنا إلى الأوروغواي لأنّ الجيش كان يطاردنا في هذه الجهة. أراد الصّيّادون التّخلّص منّا. قالوا إنّنا صعاليك متشرّدون»

صمتنا قليلا. وغفا الكلب عند قدميه.

«في أيّ سنة تُوفّي والدك؟» سأل جوردان.

«سنة 1990»

«كم كان عمره؟»

«واحدا وثمانين عاما»

«تخيّل ذلك. لقد التقينا حين كنّا يافعيْن»

«وحين عمل معك سالفاتييرّا، أيّ نوع من الأعمال كانت تلك؟»

«أعمال غريبة»

«أعمال غريبة؟»

«نعم». قال. ولم يضحك هذه المرّة. «كان لديّ مركب كبير. وكنّا ننقل حجر الكلس من مقلع بيرتي أو الجلود من مدبغة بيلوفّو أو الصّوف أو أيّ شيء آخر يمكننا الحصول عليه.

«هل هذا صحيح؟»

«نعم. هل تودّ الدّخول لاحتساء مشروب المتّة؟»

«لا. شكرا أيّها الرّئيس. عليّ أن أغادر الآن»

تبادلنا تحيّة الوداع. قدتُ الدّرّاجة باتّجاه النّهر عبر الطّرقات الوسخة بين الخنادق وصفوف المنازل الواطئة، مُحاولا تجنّب الحفر بينما القارورة المتدلّية من المقود تقرع إطار الدرّاجة. كان هذا القسم من المدينة مُهمَلا ومستنفَدًا دون أيّ علامة لبنايات جديدة. ولم يكن أحدٌ يأتي إلى هنا، إلى درجة أنّ الكلاب كانت تتلوّى ناعسةً في وسط الطّرقات. عبرتُ منتزه أوريتس حيث كنّا من قبلُ نلعب كرة القدم. فوجدت الصّفصافة الباكية ماتزال في مكانها حيث اعتاد سالفاتييرّا أن يجلس تحتها عندما يأتي لمُشاهدتنا. ازداد العشبُ طولا وسطَ الممرّات ومشاتل الأزهار. وبدا المشهدُ شبيها بأرض يباب. فيما كان مهرٌ كستنائيّ يفركُ رقبته إزاء إحدى العوارض.

(24)

أنجز الهولنديّ وآلدو نصف العمل تقريبا. قال بوريس إنّه أرسل بعض الصّور الرّقميّة إلى إدارة المتحف، وإنّ هناك أخبارًا حسنة، فقد قرّر المتحف شراء العمل كاملا. وخلافا لما كنتُ أتوقّعه، جعلتني هذه الأخبار كئيبا. فلن يكون الرّسمُ من هنا فصاعدا ملكا لنا. كان علينا أن نبدأ في تجميع الأوراق الضّروريّة حتّى يغادر الأرجنتين. وفي انتظار ذلك، ينبغي على بوريس أن يواصل الرّقمنة. ورغم أنّه يمكن التكفّل بذلك في هولندا ما أن يصير الأثر هناك، فإنّه قد طُلب من بوريس متابعة عمله في الوقت الرّاهن. أرادوا منه أن ينسخ قدر المستطاع قبل عودته لأنّهم يعدّون لعرض أعمال فنّيّة من أمريكا اللاّتينيّة مرّة كلّ سنتين. ولم يتبقّ الكثير لإنجازه. فقد كان بوريس وآلدو ينسخان مائتين وأربعين مترا من قماش الرّسم كلّ يوم خلال حصّتين من العمل. وتمتدّ الحصّة الواحدة على خمس ساعات. بعبارة أخرى، كانت تُنسخ أربع لفافات تقريبا في كلّ يوم. وسوف يتطلّبُ الأمر حوالي أسبوع لينتهي. ولكن ربّما نستطيع إرسال القماش قبل ذلك.

تحدّثتُ مع لويس. نحتاج أن نستعلم عن الرّسوم الجمركيّة، لنرى إن كانت تنطبق على الأعمال الفنّيّة. وربّما يجدر بنا تقديم طلب تصدير. قال لي إنّه سيتكفّل بكلّ ذلك. وسألني:

«هل وجدت اللّفافة المفقودة؟»

«لا» أجبتُه. «لكنّني أعرفُ من يملكها»

(25)

توجّهتُ في ذلك المساء إلى النّهر، مُصمّما على العثور على إيبانيز. كنتُ عازما على السؤال عنه باسمه أو البحث عن صيّاد سمك أسودَ. لم أستطع تذكّر وجهه. وعلى كلّ حال، فقد أصبح عجوزا الآن. ولا ريب أنّ ملامحه قد تغيّرت كثيرا حتّى أتعرف عليه. قال جوردان إنّه ينبغي عليّ البحث عنه عند ملعب الكرة الحديديّة. فبدأتُ التّفتيش عنه من هناك. تحمل البيوت هنا علامات مائيّة تركتها فيضانات مختلفةٌ، يبلغ بعضُها أعلى النّوافذ. لذلك سلكتُ طريقا مفروشا بالحصى باتّجاه الشّمال.

كان يوما من أيّام الرّبيع الأولى، دافئا ولكنّه رطب. انتشرت على امتداد الطّريق تلك الأكشاك المألوفة التي تبيع أنواعا مختلفة من الطُّعم وتعرض لافتاتُها كلمات مختلفة: يرقات، أسماك الإنقليدس، ديدان الأرض. وكانت تبيع كذلك حقائب بلاستيكيّة فاتحة اللّون ومليئة بالماء تسبح داخلها أسماك أبراميس صغيرة.

عبر صبيّان يرتديان قبّعتي بايسبول خلال الطّريق. كان أحدهما يضع قفصا بداخله عصفور كاردينال على مقود الدرّاجة، فيما تتدلّى من إطار الدرّاجة الأخرى صنّارة بسمكتين كبيرتين. سألتهما إن كان السّمك يعض.

«ليس كثيرا» قالا في نبرة حذرة.

«هل جئتما من شاطئ فيليز؟»

«لا. من رصيف الميناء»

«هل رأيتما أيّ صيّاد عجوز هناك؟» سألتهما بينما توقّفتُ لألتقط أنفاسي وهما يوصلان مسيرهما. أبطآ قليلا والتفتا إليّ من فوق كتفيهما.

«أيّ واحد من أولئك العجائز الذين يعيشون عند ضفّة النّهر»

قلتُ. «هل يوجد أيّ منهم عند رصيف الميناء؟»

«لا. ولكن هناك أناس في لوس إيتاليانوس»

شكرتهما. فتابعا طريقهما بسرعة أكبر.

اندفاع الهواء من السّيّارات التي تمرّ بقربي جعل مقود درّاجتي يتمايل. لاحظتُ صنبور مياه عند مدخل مكان مُخصّص لإصلاح العجلات. فتوقّفتُ من أجل القليل من الماء. لم تكن البناية أكثر من مكعّب إسمنتيّ تنمو خلفه شجيرات وأعشاب طفيليّة كثيرة. جلَست امرأة بصحبة طفلين على مقاعد سفينة وهي تشرب المتّة عند المدخل. أشرتُ إليهم مستأذنا لاستخدام الصّنبور فوافقوا على الفور. كان الطّفلان يُطعمان بعض المقرمشات لقضاعة نهريّة صغيرة. بلّلتُ رأسي وعنقي ووجهي. رأيتُ بعض الجلود معلّقة على سياج سلكيّ. فخمّنتُ أنّ صيّادي القضاعة يقفون في الجوار. وذهبتُ لأتحدّث إلى المجموعة.

«مساء الخير»

«مساء الخير»

«هل تعلمين رجاء إنْ كنتُ أستطيع العثور هنا على شخص يدعى فرمين إيبانيز»

«شخص يُدعى...؟»

«هل تعرفين أيّ شخص هنا اسمه إيبانيز؟»

«إيبانيز. لا» أجابت المرأة وهي تصفع بعوضة على ساعدها.

حدّق فيّ الطّفلان بفضول. وإلى جانبهما كان هناك إطار سيّارة زرقاء (فياتْ 600) يُستخدم قنًّا للدّجاج. ثمّتَ غسيل يتدلّى من حبل. ولا وجود لمشاتل أو زهرة واحدة أو نبتة. لا شيء سوى قاذورات تتخلّل الأعشاب الطّويلة.

صعدتُ الدّراجة. وتابعتُ القيادة. وكلّما تقدّمتُ أكثر، شعرتُ بمزيد من التّعب. بدأتُ أسائل نفسي: ما الّذي كنتُ بصدد القيام به؟ وهل كنتُ فعلا أصدّق أنّني سأعثر على ما أبحثُ عنه... رسمٌ سُرق منذُ أربعين سنة خلتْ من قبل رجل قد قام على الأرجح بحرقه أو إلقائه في النّهر.

غادرتُ المسلك. وتوجّهتُ إلى الشّاطئ. ساعدني الانحدار الطّفيفُ على المتابعة رغم الشّكوك التي تملّكتْني. ولم يكن هناك أحدٌ عند ملعب الكرة الحديديّة. الكراسي والطّاولات البلاستيكيّة مكوّمة في زاوية والكشك مغلق.

(26)

وصلتُ إلى المنطقة التي تسمّى لوس إيتاليانوس وهي مروج قليلة كانت فيما مضى مزارع للألبان ثمّ صارت حظائر للماشية وهي الآن مجرّد مواقع للتّخييم. امتدّت الطّريق تحت بستان شجرات الأوكاليبتوس. ورأيتُ أكواخا جديدة لم توجد من قبل في هذا المكان... أكواخ من الصّفيح وملاجئ مرمّمة. لقد انتشرت هنا خلال السنوات الأخيرة مدينة كاملةٌ من الصّفيح.

قفز فتى يافع من خلف إحدى الشجرات. وصوّب نحوي سلاحا. ففقدتُ التّوازن من فوق الدّرّاجة. وسقطتُ مثل بطّة على الأرض. وقعت برأسي على العشب إلى جانب خندق للسّقاية. وسمعتُ ضحكات تتردّدُ حولي. كان هناك أطفال آخرون يختبئون خلف الأشجار. وقد انطلقوا هاربين. صرختُ على أعقابهم غاضبا. ثمّ نظرتُ إلى جسدي. لم أصب بشيء سوى خدش بسيط في ركبتي. انتصبتُ على قدميّ من جديد. فرأتني فتاة صغيرة تحمل وعاء بلاستيكيّا مليئا بالغسيل وأنا أنظر حولي فزِعًا. قالتْ: «إنّهم مجرّد بُلَدَاء»

شكرتُها. ولم أستطع التّوقّف عن النّظر إليها من خلف. بدتْ جميلة في لباسها الأزرق وشعرها المبلّل وهي تبتعدُ بين الحفر المليئة بالأنقاض وأكوام العشب فيما خُفّاها يُفرقعان على الأرض. التفت إلى الخلف لوهلة، عسايَ أستطيع القول إنّها ابتسمتْ لي. لكنّها لم تفعل،

بل اكتفت بمتابعة سيرها بكلّ بساطة. فمشيتُ إلى الأمام وأنا أجرّ معي الدرّاجة.

اكتشفتُ فجأة أنّني أوغل أكثر فأكثر في مدينة الصّفيح الجديدة هذه. ولذلك عرجتُ إلى درب وسخة تقود إلى النّهر. كان باستطاعتي أن أرى من بعيد عبر الأشجار المياهَ الموحلة الصّفراء التي تمتدّ مباشرة باتّجاه الأوروغواي، تلك التي لطالما بدتْ لي بعيدة جدّا وعسيرة المنال.

كان هناك طريق يحفّ ضفّة النّهر مررتُ خلاله بصيّادين كثيرين يلقون صنّاراتهم في الماء. ثمَّتَ دجاجات تستلقي تحت أقدامهم وقد التُهمتْ وأعدّت أحشاؤها طعما للأسماك. تجمّع الذّباب حول جثثهنّ وفوق الدّلاء والأحذية المطّاطيّة. سألتهم إن كانوا يعرفون صيّاد سمك أسودَ يُدعى إيبانيز. ولكنّهم نفوا ذلك جميعا. وصلتُ إلى مكان توجدُ فيه لائحة كُتبَ عليها: «ببّغاوات للبيع» وأخرى: «شواء الباجاريتو». لم يكنْ من الواضح إن كانت الببّغاوات التي يبيعونها ما تزال حيّة أم هي على قائمة الطّعام. بلغتُ بعد ذلك كشكا من الصّفيح المموّج حيثُ يقلبُ طبّاخ هزيلٌ بعض النّقانق اللاّذعة فوق سرير من الجمر. ألقيتُ التّحيّة. وجلستُ لأستريح. ثمّ تناولتُ شطيرة نقانق مع كأس من النّبيذ.

وحتّى أكسر الصّمتَ سألتُه منذُ متى صارتْ لوس إيتاليانوس مأهولة بالسّكّان.

«الصّفيح؟»

«نعم»

«لا بدّ أنّها سنتان أو ثلاث. في هذه الأيّام، هنا في بارّانكالس-قال هذا وهو يخمّن أنّني من بوينس آيرس- كلّ من لا يعمل في البلديّة يعيش في مدينة الصّفيح»

«ألا يساعدهم المجلس البلديّ على كلّ حال؟»

"لا بدّ أنّك تمازحني. هؤلاء اللّصوص يسرقون حتّى التّبرّعات المخصّصة لإلباس المحتاجين وشراء الأغطية»

سألتُه عن إيبانيز. صمتَ قليلا وهو يمسح المنضدة بقطعة من القماش. ثمّ قال:

«ايبانيز؟ هناك من يدعى كذلك. لكنّه في الجانب الأوروغواني»

«فرمين إيبانيز؟»

«نعم. لستُ متيقّنا من اسمه الخاصّ. لكنّه صيّاد سمك يُدعى إيبانيز»

«هل هو أسود؟»

«نعم... في الحقيقة إنّه خلاسيّ أكثر من كونه أسود»

«مباشرة من هنا؟»

«نعم، عليك أن تعرج قليلا في الحقيقة باتّجاه بايْساندو»

«كيف لي أن أعبر إليها؟»

«من هذه الجهة عند جرفازيوني، خلف الطّاحونة، توجد عبّارة تنقل السّيّارات عبر النّهر»

«لا أظنّها ما زالت تعمل إلى الآن»

«بلى. لقد أعادوا استخدامها لأنّ النّاس لا يملكون ما يكفي من المال للقيادة حتّى الجسر نظرا إلى ارتفاع أسعار البنزين ورسوم العبور»

«متى تنطلق الرّحلة؟»

«في الخامسة... أكثر أو أقلّ قليلا»

مشيتُ على امتداد ضفّة النّهر حتّى جرفازيوني. لم يكن هناك أحدٌ على الرّصيف. فقد كان الوقتُ ما يزال مبكّرا. تقدّمتُ إلى الأشجار

المتشابكة على مسافة أمتار قليلة. وتمدّدتُ تحت ظلال شجرة المُران وإلى جانبي الدرّاجة. أظنّني غفوتُ سريعا.

استيقظتُ بعد ساعة، محدّقا في أعلى الشّجرة غير مدرك لما كنتُ أفعله هناك على الأرض. شعرتُ كما لو أنّني داخل إحدى تلك الشّرائط من الأوراق التي كان سالفاتييرّا يحبُّ رسمها: الفضاء الفارغ بين الأشجار وتشابكُها الكثيفُ مع الطّيور المختبئة داخلها. إنّها تقريبا عنصر تجريديّ يستخدمه عادة للانتقال من مشهد إلى آخر كأنّما تقع عينُ النّاظر في مستوى الطّيور المحلّقة فوق الغابة مليئةً بالظّلال التي يتخلّلها الضّوء... أماكنُ سرّيّة وحميميّة خالية من أيّ كائن بشريّ حيثُ النّظراتُ ترفرف من شجرة إلى أخرى كما لو كانت تطير دون أن تلمس الأرض، وحيدةً وسط رحابة الهواء وكثافة أشجار الغاف والخروب والمَيْس والقابوق المزهِر مُحاطَةً بطيور صغيرة مثل صائد الذّباب القرمزيّ والقبّرة ونقّار الخشب ذي الرّأس الأصفر وسُمْنَة الغِياض والببّغاء.

جلستُ قليلا. ثمّ رأيتُ عبّارةً صدئة موثوقة إلى رصيف الميناء. كانت فارغة تقريبا. عندما أتمّ مفتّش الجمارك التّثبّت من الوثائق، صعدتْ سيّارة ودرّاجتان ناريّتان فوق السّفينة وقام بعض الرّجال بتفريغ بعض الصّناديق الخشبيّة. تقدّمتُ إليهم وسألتُ الشّخص الذي بدا مسؤولا عنهم إذا ما كانت العبّارة ستعود إلى الضّفّة الأخرى. قال لي إنْ جاءت بعض السّيّارات الأخرى فقد تنطلق الرّحلة. جلستُ إذن مزيدا من الوقت عند الرّصيف، متأمّلا المياه التي كانت شبه ساكنة تقريبا. التفّت الأمواجُ البنّيّة الصّغيرة بالأعمدة وقد جعلتْ نتف الأوساخ الطّافيةَ تتمايل جيئة وذهابا.

لقد عبرت العائلة برمّتها النّهر في مناسبتين من أجل قضاء

العطلة في لابالوما بالأوروغواي. عندما مات جدّي، أنفق سالفاتييرّا قسما من ميراثه خلال صائفتين أو ثلاث عبر البحر. أجّرنا بيتا قريبا من الشّاطئ. وقد اعتاد سالفاتييرّا آنذاك أن يحمل معه أمتارا كثيرة من القماش المخصّص للرّسم ويرسم في الفيراندا. وعندما عاد إلى الكوخ، ألحقها باللّفافات الأخيرة. لقد كان عبورنا على عبّارة أوصلتنا إلى فرايْ بينْتوس ومن هناكَ اتّخذنا القطار المؤدّي إلى لابالوما. بالنّسبة إليّ، تبدأ العُطل دائما على متن عبّارة.

بعد انتظار دام ساعتين على رصيف جرفازيوني، شعرتُ بالإرهاق والسّأم. وبدا لي النّهر واسعا جدّا كما لو كان عليّ أن أسبح خلاله. لم تكن لديّ أيّ فكرة عمّ كنتُ بصدد القيام به حاملا درّاجتي معي وباحثا عن صيّاد سمك كنتُ قد سمعتُ أنّه يعيشُ على السّاحل البعيد. في النّهاية، لم تغادر العبّارة لأنّه ما من سيّارة قد ظهرتْ. كنتُ قادرا على العودة باتّجاه البيت وقد شعرتُ بالارتياح للشّعور بأنّ عوائق لا تُقهر قد هزمتني وليس ضعفي الخاصّ. قلتُ لنفسي إنّه من الأفضل أن تكون الأمور على هذا النّحو. وعندما قدِم أخي، ركبْنا سيّارته وعبرنا النّهر عن طريق الجسر الدّوليّ.

(27)

في طريق عودتي، رأيتُ واحدة من تلك السّماوات التي كان سالفاتييرّا يحبّ رسمها كثيرا... سماء عميقةٌ، متحوّلة ومتينة. كان يرسم أحيانا بعض السّحب المتناثرة وهي تمتدّ وتصغر باتّجاه الأفق ممّا يعطي للسّماء أبعادها الحقيقيّة. بإمكانه أن يخلق فضاءات جوّيّة واسعة تجعلك مشدوها كما لو أنّك توشك أن تُغرق مقدّمة رأسه في قماش اللّوحة. لقد خبرتُ أيّ نوع من السّماوات يحبّذُ. ولذلك كنتُ أذهبُ في بعض المساءات بعد المدرسة إلى الكوخ فأقول له: «ثمّتَ سماء حسنة في الخارج». ثمّ نخرج معا لنلقي نظرة. إنّه أمرٌ ما زلتُ أقوم به في غفلة منّي، رغم أنّ أبي قد مات منذ سنوات طويلة. لقد فعلتُ الشّيء نفسه في ذلك المساء عندما كنتُ عائدا إلى بارّانكالس أقود الدّرّاجة ببطء: رأيتُ السّماء الهائلة، سماء السّهول، زرقاء كثيفة بسحب طويلة مثل الجبال أو مدن بأكملها فقلتُ في صمت لسالفاتييرّا إنّه ينبغي علينا الذّهاب إلى الخارج لنلقي نظرة.

يحدث لي مرارا أن أرى شيئا مّا فأعرفَ كيف كان ليرسمه. أرى تينا في زبديّة. فأتخيّل كيف كان سالفاتييرّا سيجسّده. ألاحظُ شجرة أوكاليبتوس رماديّة-زرقاء مثلا، فأنظر إليها كما لو كانت إبداعه الخاصّ. وبالنّسبة إلى النّاس (وهذا يحدث معي عادة خلال التّجمّعات بعد احتساء كأسين) أحيانا أراهم كأنّهم من زيتٍ ملوّنين

بشكل صارخ ذوي وجوه حمراء وصفراء بضحكات تكعيبيّة أو يقومون بحركات كان ليقتنصها مثل التواء رؤوسهم أو تقاطع أقدامهم أو حتّى جلوسهم.

ومع ذلك، فقد يبدو الأمر متعلّقا بنظرتي الفنّيّة الخاصّة التي لم أملك أبدا الشجاعة لتطويرها. لكنّني لم أملك الرّغبة في الرّسم مطلقا. فلطالما شعرتُ أنّه لم يترك شيئا لم ينجزه. أذكر أنّني عرضتُ له حين كنتُ في العاشرة خربشةً رسمتُ فيها غوّاصات وقذائفَ. وكنتُ فخورا بالنّتيجة التي توصّلتُ إليها. ذهبتُ بعد أسبوعٍ إلى الكوخ. فعثرتُ على غوّاصة وقذيفة هائلتين ملوّنتيْن بشكل مشعّ ومرسومتين على قماشه. وبدل أن أفكّر أنّه قد نقل ذلك منّي، تملّكني إحساسٌ بأنّني أنا من نقلتُ الرّسم عنهُ دون أن أكتشف ذلك.

عندما كنتُ مراهقا، اعتدتُ أن أحلم أنّني أحضن امرأة عارية. ألتصقُ بها دون خوف من أن تتحوّل إلى شيء آخر. لكنّني كنتُ أضغطُ عليها بإحكام حتّى تصير أكثر لينا وتشرع في التّفتّت إلى ألوان. إذا ما داعبتُ ذراعها، تبدأ بشرتها بالتّلطّخ وأرى تحته لونا أزرق لزجا. كنتُ أتركها فتشرع في الذّوبان. أشعر بالفزع ويزداد يأسي فأدفعها إزاء الورقة كما لو كنتُ أحاول قتلها أو الوصول إليها حتّى تصير مجرّد صورة جميلة مستحيلة ثنائيّة الأبعاد ومرسومة إلى الأبد على القماش.

إنّ العثور على اللّفافة المفقودة أمرٌ أحتاج إلى القيام به حتّى يتوقّف عمل أبي عن كونه لا نهائيّا. إذا ما ظلّ قسمٌ من الأثر مفقودا، فإنّني لن أستطيع التّعامل معه في كلّيّته ومعرفته في تمامه.

ستكون هناك أشياء أخرى غامضة. أشياء قد يكون سالفاتييرّا رسمها في حين أنّني لا أعلم عنها شيئا. ولكن، فقط لو أعثر عليها فسوف يصبح لهذا العالم من الصّور حدٌّ مّا. وسيبلغ هذا اللا

نهائيّ نهاية ممكنة. فأستطيع أن أكتشف شيئا مّا لم يرسمه... شيئا يخصّني. ورغم ذلك، فإنّ هذه التأويلات تخطر في بالي الآن فقط. أمّا قبل ذلك، فقد كنت بكلّ بساطة مهووسا بفكرة العثور على اللّفافة. ولم أفكّر مجرّد التفكير في هذه المسائل.

(28)

عند وصولي إلى الكوخ، كنتُ منقطع الأنفاس. لقد غادر بوريس وآلدو. فتحتُ زجاجة الويسكي التي اقتنيتها من أجل جوردان. احتسيتُ جرعتين كبيرتين. وبدأتُ أفتّش بين الرّفوف والصّناديق. عثرتُ على رسم ياباني كان الدكتور دافيلا قد منحه لسالفاتييرّا. لقد كان رسما طويلا على مخطوط يرتبط فيه كلّ مشهد بالذي يسبقه فيما يلهم في الآن نفسه بتلك المشاهد التي تليه. لا بدّ أنّ سالفاتييرّا كان مسحورا به.

عثرتُ كذلك على فُرش صنعها أبي من وبَر جميع أنواع الحيوانات. أكثرها سُمكا تلك التي صنعت من أذيال الأَحصنة التي اشتريناها من مزادات الأفراس القديمة حيث يبيعون أكياسا من وبَرِ الأحصنة بالكيلوغرام. وبالنّسبة إلى الفرُش المتوسّطة، فقد كان سالفاتييرّا يستعمل الوبَرَ الكامن داخل آذان البقر. كنّا نذهب ونأخذها من لورنزو القصّاب خلال أيّام الثّلاثاء عندما يقوم بالذّبح.

أمّا الفُرش الأكثر رقّة منها، فقد صُنعت من شُعَيْرات قُضاعة النّهر إذْ يحضرها صيّادٌ فراء عجوز يُدعى سيفيرينو هيرنانديز مقابل قارورة من نبيذ الضّفائر الذّهبيّة الأحمر. وتلك الأكثر نعومة على الإطلاق والتي تُستخدم لرسم شَعر الأشخاص وذؤابة العشب أو المسائل التي تشبه لعاب الشّمس، فقد كانت تتشكّل من فرو القطط

السّوداء التي يقذفُها أبناء الجيران من حين إلى آخر بالحجارة أو الرّيش الصّغير المُجمَّع من الأرضيّة تحت الأقفاص الماثلة في الفناء والتي يُخبّئ فيها لويس الكناري والكاردينال أو الدُوريّ. كان سالفاتييرّا يصنع مقبض الفرشاة من قصب الخيزران. ويضع الشّعر في قمع حتّى يتّخذ شكلا ثُمّ يقصّ أطرافه بعناية وحين يثبتُ ويلتصقُ بعضُه ببعضٍ يضعه داخل القصبة. وبتلك الطّريقة كان يعدّ فرشه.

جاء آلدو ليغلق الكوخ. فطلبتُ منه أن يساعدني في إنزال بعض اللّفافات إلى الأسفل. وسألته كم مرّ من الوقت تحديدا على عمله مع أبي. وحين أجابني وجدتُ أنّ سالفاتييرّا قد عمل بمفرده دون مساعدة طيلة عشر سنوات. أخفضنا لفافات عديدة تعود إلى تلك الفترة وأخرى إلى سنوات لاحقة خلال الثمانينيات. وعندما غادر آلدو، قضيّتُ وقتا وأنا أتأمّل لفافة قد خُصّصت بأكملها لتصوير الفصول. لم يكن فيها أيّ شخص باستثناء بعض الصّور الصّغيرة العرضيّة وهي تطفو على خلفيّة المشاهد الطّبيعيّة. تتطوّر المشاهد من نور القيلولة الصّيفيّة إلى حمّامات أبريل، من حقول الشّتاء المغمورة بالمياه الفائضة إلى الأشجار المتصدّعة بأوراقها الفوسفوريّة. إن لم أكن مخطئا، فقد رسم هذا سنة 1962، السّنة التي أطاح فيها الانقلاب بالرّئيس فرونديزي. فكلّما خيّبت السّياسة أمله –أو أيّ شيء آخر إنسانيّ بشكل عامّ– رسَم سالفاتييرّا هذه المشاهد الطّبيعيّة الفارغة كما لو أنّه يودّ الذّهاب بعيدا إلى مكان مهجور حيثُ تتقلّص الرّوابط مع الكائنات البشريّة الأخرى إلى موجة نائية.

ثمّتَ لفافةٌ أخرى لم أرها من قبل تبدأ بصورة قطار. كان هناك مُراهق نحيل ذو مظهر كئيب يجلس في القاطرة الأخيرة وينظر عبر النّافذة إلى الخارج. هل هذا هو أنا؟ إنّه يشبهني كثيرا. كان الفتى يودّع شخصا على الرّصيف بينما تطفو ابتسامة متوتّرة على

شفتيه. نعم إنّه أنا. تعرّفتُ على نفسي كما لو كنتُ في صورة قديمة لم أكن واعيا أنّها التُقطت لي. لقد رسمني أبي تماما مثلما رآني في الصّباح الذي رافقني فيه مع أمّي إلى المحطّة. بعد ذلك، أصبح القطار والعشب ضبابيّين لأنّ القطار كان يتحرّك. وظهرتُ في نوافذ القاطرات الأخرى. في إحداها، كنتُ أتناول شطيرة. وفي الأخرى، كنتُ نائما مُسنِدا رأسي إلى النّافذة بينما تجلس قبالتي فتاة عارية كما لو كانت حلمي الخاصّ. شعرتُ بالذّهول لأنّ سالفاتييرّا قد فكّر فيّ بكلّ هذا العمق ولأنّني رأيتُ نفسي من خلال عينيه وقد كان من الواضح أنّ رحيلي قد آلمه إلى درجة كبيرة. شعرتُ أنّه كان يحدّثني عبر رسمه هذا، مُجسّرا الصّمت العظيم الذي كان يوجد بيننا. إنّه يحدّثني الآن بالحبّ في ما رسمه، قائلا أشياء لم يكن من قبلُ قادرا على البوح بها مُطلقا.

شربتُ مزيدا من الشيفاز. ولم أقدّر تلك الكمّيّة لأنّي كنتُ أحتسي مباشرة من القارورة. ما الذي حدث بالضّبط خلال تلك السّنوات؟ كان لويس قد رحل أوّلا إلى بوينس آيرس. ثمّ لحقتُ به بعد فترة قصيرة. كان من المفترض أنّني ذاهب للدّراسة. ولكنّني أردتُ في الحقيقة أن أهرب من بارّانكالس، من البيت وخاصّة من الرّسم ودوّامته التي أحسستُ بأنّها ستبتلعني إلى الأبد كصبيّ المذبح الذي قُدّر له أن ينتهي مثل شابلن في ذلك الهيكل العظيم المشكّل من الصّور والمهامّ التي لا تنتهي مع القماش والبكرات والألوان... لقد رسم سالفاتييرّا عمليّة هروبي وكأنّه يريد حمايتي لأنّ نوافذ القطار تحوّلت لاحقا إلى نوافذ الجامعة. وهناك، كنتُ مجدّدا ابنه الأصغر ساهما وسط الطّلبة الآخرين بينما يحلّق حول رأسي سرب من الببّغاوات. وعبر نافذة أخرى، كنتُ جالسا مع لويس إلى الطاولة في البيت الذي نقيم فيه. بدا لويس سعيدا وهو يصبّ لنفسه كأسا بدت شبيهة

بالجُعّة. كنتُ أدخن. كيف علم سالفاتييرّا أنّني بدأتُ أدخّنُ؟ لا بدّ أنّه تخيّل الأمر ببساطة. فرسم ابنه وقد صار بعيدا عنه وهو يقوم بأشياء لم يعد بإمكانه مساءلته عنها. تلك كانت طريقته في مراقبتنا كليْنا راغبا في أن نحصل على حياة طلاّبيّة يسيرة دون خطر. لقد سمع على موجات الإذاعة عمّا كان يحدث في تلك الأيّام داخل الجامعة. لا بدّ أنّه كان قلقا بشأن لويس أكثر منّي إذْ كان يتشدّق بكونه مناضلا بيرونيّا. علم بذلك لأنّني كنتُ أناديه (حتّى صار الأمر خطيرا): «أخي البيرونيّ». لكنّ لويس لم يكن يملك حقّا عقائد سياسيّة عميقة. لقد كان ناشطا خلال سنتين حتّى يضع نفسه إلى جانب ميل أبي لمساندة فرونديزي ولكي يُقبل ضمن جماعة من الأصدقاء في العاصمة. ثمّ جنح بنفسه عن النّضال قبل فترة طويلة من السّنوات الأكثر عنفا.

وأمام إلحاح سالفاتييرّا، تهاتفنا أمّي بشكل دوريّ لتسأل عن أحوالنا. «بابا يريدُ أن يعرف متى ستأتيان لزيارتنا». هكذا اعتادت أن تقول. لكنّنا نترك الأشهر تمرّ تباعا دون أن نعود إلى البيت إلى أن تحلّ العطلة فنذهب لقضاء عيد الميلاد معهما. كنّا نعرفُ أنّنا سنبقى في النّهاية في بوينس آيرس ونعيش فيها. وكنّا كذلك شريكيْن متواطئين في هذا النّوع من الخيانة.

الآن، صار الوقتُ متأخّرا. لكنّ الويسكي المسكوب في معدة فارغة قد منحني الشّجاعة الخرقاء السّخيفة لفتح لفافة أخيرة قبل أن أغادر. إنّها تعود إلى الثّمانينيات. كلّ ما رأيته في البداية كان شواطئَ رمليّة وكلابَ السّلوقي بين أشجار الصّفصاف. ثمّ لاحظتُ بورتريه رسمه سالفاتييرّا لزوجتي السّابقة سِيلْفْيَا مع ابني غاستون خلال احتفال مّا في بارّانكالس. كانا بمفردهما فقط. ولم أكن هناك. كما لو أنّنا قد افترقنا سَلَفا. كانت سيلفيا جالسةً تنظر جهة اليمين وابني غاستون الذي كان عمره على الأرجح ستّ سنوات أو سبعا كان واقفًا

وهو ملتصق بأمّه ويحدّق إلى الأمام مباشرة. أرهبتني عيناه. لطالما رسمهما سالفاتييرّا كما لو أنّهما على وشك أن تغمزا. عينا ابني ونظرتهما الشّفّافة الموشّحة بألم خفيف...بدا كأنّه يسائلني لم حدث كلّ ذلك... الانفصال والطّلاق والذّهاب لإحضاره ومن ثَمَّ قيادة الدّرّاجة في غابة باليرمو خلال صباحات السّبت.

كان عليّ أن أجلس. حدّقتُ في الرّسم وقد تشرّبني تماما. بُعيْدَ هذا الرّسم تماما، انفصلتُ أنا وسيلفيا. إنّهما هناك: زوجتي وابني كأنّني أعيد اكتشافهما من جديد حيث تركتهما بالضّبط وكأنّهما بقيا هناك بانتظاري دون حركة في ظلال قماش اللّوحة لأكثر من عشر سنوات. كنتُ أعرف أنّ سيلفيا توجّه لي نصيبا من اللّوم. ولكن، ها أنّ سالفاتييرّا يعرض لي ما كنتُ قد خسرْتُه. وجدتُ من العسير تأمّل ذلك. ولقد نجح أبي في التقاط ما كان ينسلّ من بين أصابعي.

(29)

لقد كان الظّلام سائدا عندما غادرتُ الكوخ راكبا درّاجتي في الطريق إلى البيت. كانت هناك بعض النّجمات في الخارج وكان الهواءُ منعشا. حاولتُ أن ألتقط مكان الحفر وقطع المطّاط حتّى أتجنّبها أثناء قيادتي. وقبل أن أتقرّى ملامح الطّريق، سمعتُ سيّارة تسرع خلفي. حاولتُ أن أتعرّف إلى القادم لكنّ مصابيح سيّارته الأماميّة غَشَتْني فمنعتني من النّظر. بدا أنّها تتوجّه مباشرة إليّ لتمزّقني مُهدِّدة بسحقي. حدّقتُ قدر استطاعتي باتّجاه رصيف الشّارع. ثمّ وضعتُ قدما على الأرضيّة وأنا أرتجف من الفزع. توقّفت السيّارة أمامي بأمتار قليلة. كان هناك رجلان داخلها. أحدُهما وهو الجالس على المقعد الجانبيّ ويدهُ تتدلّى من النّافذة. صرخ فجأة دون أن يلتفت إلى الخلف:

«بعْ تلك الخردة وانتهِ منها». وفي تلك اللّحظة انطلقت السيّارة بسرعة مخلّفة وراءها حشَدًا من الغُبار.

لم أستطع تبيّن وجهيهما. جاء بعض الجيران ليتثبّتوا من الأمر. وسألوني عمّا حدث. فلم أعرف بما أجيبهم تحديدا: إن كان الأمر سوء تفاهُم أم أنّ شخصا مّا قد حاول قتلي للتّوّ. لم أكن متأكّدا على كلّ حال.

وبدل أن أواصل السّير باتّجاه البيت، ذهبتُ إلى الهاتف العموميّ.

واتّصلتُ بلويس. عندما قصصتُ عليه ما حدث قال إنّهم على الأرجح منحرفون أرسلهم بالدوني صاحب السوبر ماركت.

«إنّه يحاول أن يحاصرنا بمساميره حتّى نُضطرّ إلى البيع» قال لويس.

لقد بدا متيقّنا ممّا يقوله. ورغم ذلك، فقد اعتبرتُها فكرة لا تُصدّق. اقترح عليّ لويس أن أسرد القصّة على الشّرطة إن كان ذلك مطمئنا لي. أراد أن يهوّن عليّ قائلا: «لا أحد سيقتلنا من أجل كوخ يا ميغيل»

كان من اليسير عليه أن يقول ذلك من تلك المسافة البعيدة جدّا. أخبرني فيما بعد أنّ الوثائق المطلوبة لإخراج الرّسوم من البلد لا تمرّ بخير. كان بصدد الاتّصال بمحام لأنّه حين ابتدأ العمليّة واجهته مشكلةٌ مّا. تقدّم لويس بطلب ترخيص للتّصدير من اللّجنة الوطنيّة للتّاريخ والتّراث الفنّيّ. واكتشفت اللّجنة أنّه منذ سنوات خلتْ تمّ إعلان عمل سالفاتييرّا جزءا من «التّراث الإقليميّ». ولهذا السّبب يمنع بيعه أو نقله خارج البلد. وبما أنّ المشرفين على الإقليم لم يقوموا في الحقيقة بأيّ شيء من أجل الرّسوم فإنّه من حقّنا دفعهم إلى المحكمة طلبا لإلغاء هذا الإجراء. لكنّ ذلك سوف يتطلّب سنوات عديدة. لم أستطع أن أصدّق ما كنتُ أسمعه.

«لا تقل شيئا للهولنديّين في هذه المرحلة» قال لويس.

ذهبتُ إلى البيت. وقد اختفى الفزع. وحلّ مكانه الانزعاج بسبب البيروقراطيّة التي تضع العوائق في طريق عمل سالفاتييرّا حتّى لا يُعرف وبسبب بالدوني الذي يحاول أن يخيفني كي أبيعه الكوخ... رأيتُ تلفازا في دكّان دورسّت عند الزّاوية. فذهبتُ لأحتسي بعض الجعة وأهجر قليلا تلك الهواجس. فقد كنتُ في حاجة إلى قليل من الضّجيج.

(30)

في الصّباح التّالي، ذهبتُ إلى السّوبر ماركت لأواجه بالدوني في مكتبه.

«ماذا تقول أنّني فعلت؟» صرخ في وجهي.

لقد شعُر بالاستياء حقّا حين شرحتُ له الأمر. وأنكر ذلك تماما. قال إنّها ليست طريقته في التّعامل مع هذه المسائل. وقد يكون من الصّواب أنّه مستعجل لشراء الأرض لكنّه لن يرسل رجاله ليضغط على أيّ أحد.

«إذن، ما الذي يفعله رجالك؟» سألته مشدّدا على حقيقة أنّه هو نفسه يسمّيهم كذلك.

«أنا مهتمّ بمكتب الرّعاية الاجتماعيّة. نحن نوزّع التّبرّعات التي تصلنا. وبعض النّاس منزعجون منّي لأنّهم يعتقدون أنّني أحتفظ بها لنفسي. ومن الممكن إذن أنّ هؤلاء قد ظنّوك واحدا من فريقي»

شعرتُ بالحيرة والارتباك أكثر من أيّ وقت مضى. فذهبتُ إلى الكوخ. وتفرّجتُ في بوريس وآلدو وهما يعملان. إنّهما يقومان الآن بالمهامّ كلّها بطريقة ميكانيكيّة. يفتحان لفافة تحت الماسح الضّوئيّ ويمدّدانها من كلّ جهة بشكل متطابق مثل صورة وانعكاسها على المرآة. وبعد أن تنسخ الآلة ذلك الجزء يطويان طرف اللّفافة. عادت حنّا من ميسيونيس ومعها منحوتات خشبيّة لطيور صغيرة ونمور

وتماسيح. بدا من خلال كلامها أنّها قد أعجبت بشلالات إجوازو أكثر من أطلال البعثة المسيحيّة. كان تتكلّم بلغة نصفها إسبانيّ والنّصف الآخر هولنديّ مضيفة بعض الشّروح لبوريس.

أخبرني بوريس بأنّ إدارة المتحف تريد أن تعرف المستجدّات المتعلّقة بوثائق التّصدير. لقد كانوا قلقين بشأن التّاريخ الذي يمكنهم فيه القيام بعمليّة النّقل لأنّهم مجبرون على استخدام نقل خاصّ. لم أحدّثه عن المشاكل التي نواجهها مع الجمارك. قلتُ له إنّ جميع المسائل ستُرتّب قريبا. وأعلمني أنّه سيستمرّ في العمل إلى يوم السّبت. وإذا ما استطاعوا المحافظة على نفس المعدّل فإنّ بإمكانهم حينئذ تصوير القماش كلّه رقميّا. وبعد ذلك لن يتبقّى له أيّ شيء إضافيّ للقيام به. قال إنّه قد يعود إلى هولندا حتّى يصير العمل جاهزا للشّحن.

«إذن، سيكون السّبت يومك الأخير؟» سألته.

«نعم السّبت»

أردتُ أن أذهب قبل رحيلهم إلى الأوروغواي فأبحثَ عن إيبانيز. كنتُ يائسا من العثور على اللّفافة المفقودة.

عندما عاد لويس يوم الخميس، قرّرنا أن نُعدّ شواءً للوداع في اليوم التّالي ببيتنا من أجل آلدو والثّنائيّ الهولنديّ. كنّا ما نزال عاجزين عن معرفة ما سنقوله بالنّسبة إلى العوائق البيروقراطيّة. ولم تكن مسألة هيّنة وبسيطة. لقد سلك لويس كلّ الطّرق حتّى يجعل لجنة التّراث الوطنيّة تدرك المنطق. ما أن يتمّ إعلان عمل فنّيّ جزءا من «التّراث الثّقافيّ» حتّى يصير من غير الممكن إلغاء ذلك. ينبغي علينا أن نتّبع إجراءات قانونيّة كثيرة كي نستردّ ملكيّته من جديد. كان علينا أن نعيد امتلاك شيء ليس في الحقيقة ملكنا فحسبُ بل ظلّ مهملا لسنوات عديدة من قبل المؤسّسة التي صارت الآن مالكتَهُ الشّرعيّة وفق القانون.

تحدّثنا قليلا في المطبخ. واقترحتُ أن نعبر النّهر إلى الأوروغواي من أجل العثور على إيبانيز. قال لويس إنّه لا يملك الوثائق اللاّزمة للسّيّارة حتّى تعبر إلى الجهة الأوروغوانيّة وعلى كلّ حال فإنّ فكرتي عن مكان وجود اللّفافة قد تبدو سخيفة. أخبرته أنّ بإمكاننا استخدام السّفينة بدل السيّارة. ثمّ إنّه من الأيسر العثور على صيّاد سمك في الماء أكثر من البرّ. قال لي إنّك مجنون. وأصغى أخي إلى حججي دون أن ينظر إليّ وهو يتسكّع داخل المطبخ مُطلقا شخير ازدراء من حين إلى آخر. ثمّ شرع يغسل الأطباق. أخبرته بما قاله جوردان وحدّثتُه عن الأشياء التي اكتشفتُها بنفسي عبر التّأمّل أكثر في لفافات الرّسم. لكنّ لويس لم يجبني. بل اكتفى بتجفيف الأطباق في صمت. كان يريدُ أن يصير عمل سالفاتييرّا مشهورا لا حياته. ولم يكن يرغبً في اكتشاف أنّه قد عمل مُهرّبا. فقط، يريدُ أن تُؤخذ اللّفائف بعيدا وبشكل نهائيّ. ويبدو أنّ ظلال تلك الحياة المطويّة داخل اللّفائف كانت ثقيلة عليه.

«إن كنتَ لا ترغب في الذّهاب، فسأمضي بمفردي غدا». قلتُ ذلك لأنهي المحادثة. ودخلتُ إلى غرفتي.

سمعتهُ وهو يطوف في أنحاء المنزل لفترة. ثمّ انغمستُ في النّوم.

(31)

استيقظْتُ باكرا جدّا. وكان الظّلام ما يزالُ منتشرا. احتسيتُ قليلا من مشروب المتّة في المطبخ متسائلا كيف لي بحقّ الأرض أن أعبر النّهر في مركب آليّ. ينبغي عليّ أن أقود الدّراجة طيلة الطّريق المؤدّي إلى رصيف جرفازيوني مرّة أخرى. ورغم ذلك، كنتُ مصرّا على القيام بالأمر. استحْممتُ وارتديتُ آخر ملابس نظيفة تبقّت لديّ. ثمّ خرجتُ إلى السّاحة كي آخذ درّاجتي. عليّ أن أعترف بأنّني جرّاءَ غضبي من أخي قد أحدثتُ جلبة أكبر ممّا ينبغي. وضعتُ قليلا من البسكويت في حقيبتي. واتّجهتُ إلى الباب الرّئيسيّ. وبينما كنتُ أتأهّب للخروج، ظهر لويس أشعث دون نظّارتيه وهو يرتدي منامته. كاتب العدل في منامة... هكذا فكّرتُ. لم أره في هذا المظهر منذ عشرين سنة على الأقلّ. «انتظرني». قال لي.

غيّر ملابسه. وشرب فنجان قهوة. ثمّ غادرنا معا في سيّارته. كان النّهار ينبلج للتّوّ فوق النّهر.

«أصغِ إليّ» قال. «حسنا، سنعبر النّهر بواسطة السّفينة. ولكن إن لم نجد هذا الإيبانيز بحلول المساء، فإنّنا نعود»

«ما من مشكلة. وعلى كلّ حال، علينا أن نكون هنا في المساء حتّى نعدّ حفلة الشّواء». قلتُ له هذا كي أحافظ على هدوئه.

احتجنا إلى عشر دقائق حتّى نقطع المسافة التي عبرتُها أنا في اليوم

المنصرم ممتطيا درّاجتي طيلة ساعة من الزّمن. وضعنا السيّارة إلى جانب مكتب الجمارك. وصعدنا إلى سفينة كان من المفترض أن تغادر في تمام السّابعة ولكنّها لم تنطلق إلاّ في الثّامنة وربع لأنّها كانت تنتظر حمولة قادمة من كونسبسيون. لقد وجدتُ نفس الرّجل المسؤول عن السفينة الذي التقيته في اليوم السّابق. وقد استلم عشرة بيزوهات مقابل رحلتنا معا. سألتُه إن كان يعرف إيبانيز فقال إنّه لم يره منذ فترة طويلة لكنّه موجود عادة في مكان يُسمّى إلْدورازْنيلُو.

صار النّهر ذهبيّا قبيل شروق الشّمس. وبينما كانت المياه تتلألأ بدا السّطح شبيها بقطع هائلة من المعدن تتمايل بسرعات مختلفة. وعندما تقدّمت السّفينة بعيدا عن الشّاطئ، استطعنا أن نشعر بقوّة النّهر. توتّر المحرّك ونفث الماء بينما توجّهت مقدّمة السّفينة بشكل قُطريّ عبر التّيّار. ورغم ذلك ظلّ النّهر منتصرا علينا دافعا السّفينة نحو الجنوب. رأينا يخْتا شراعيّا يخوّض في النهر ومركب حرّاس السّواحل يمرّ كذلك عبر الماء بينما يهتزّ معظم هيكله خارجه.

سرنا نحو مقدّمة السّفينة وتمدّدنا هناك. تذكّر لويس بطولة كرة قدم كنّا قد خُضناها حين كنّا يافعين ضدّ فرق من باياساندو على الضّفّة الأوروغوانيّة من النّهر. كنّا نرتدي قمصان فريقنا عابرين النّهر مرّتين على بارجة نفطيّة لطالما ظننّا أنّها على وشك أن تغرق.

وقفنا صامتين لفترة، نحدّق إلى الأسفل في الماء وهو ينثني حول هيكل السّفينة. مررنا برجلين يركبان قاربا يتلوهما زورق صغير ذو محرّك خارجيّ يحمل عائلة وأثاثها. فجعلني ذلك أفكّر في مسألة تهريب سالفاتييرّا للبضائع في اللّيل مع جوردان. في النّهاية لم يكن النّهر واسعا جدّا. وهناك في الجهة البعيدة يُوجدُ بلدٌ آخر له قوانينه الأخرى. ثُمّ أمسكتُ لويس من ذراعه.

«لديّ فكرة»

«ما هي؟»

«لا يمكن للّوحة أن تغادر الأرجنتين؟»

«حسنا لا. لا يمكن ذلك»

«ولكن يمكنها أن تغادر الأوروغواي»

حدّق فيّ لويس مليّا. وقال: «ما الذي تقصده؟»

«ننقلها إلى الأوروغواي. ونرسلها من هناك إلى هولندا»

«ننقلُها؟»

«نعم. ننقلُها»

أشعّ وجه لويس فجأة. وأردف: «ليست فكرة سيّئة على الإطلاق». وضحكنا معا.

اقتربت المنحدرات المشجّرة الواطئة للسّاحل الأوروغواني إلى درجة أنّنا استطعنا أن نلاحظ الانزلاق الأرضيّ والكتل الضّخمة للأرض المبيضّة عند الماء. نزلنا في ميناء لا يعرفه أيّ واحد منّا من قبل. سألنا ضابط جمارك أوروغوانيّ عن وثائقنا. وبعد التّثبّت، ترجّلنا سويّا دون أن نعرف إلى أين نمضي.

تقدّم إلينا رجلٌ مقترحا أن نستخدم التّاكسي. سألناه إن كنّا بعيديْن عن إلْدورازْنيلُو. فقال إنّها مسافة خمس عشرة دقيقة. ثمّ قادنا على امتداد طريق مفروشة بالحصى. بإمكانك أن تعرف انطلاقا من المنازل الواطئة الموجودة على كلّ جهة بأنّنا كنّا في بلد مختلف. وقد كانت لديهم مشاتل أزهار أنيقة بداخلها زهور ونباتات. وصلنا إلى هناك خلال خمس عشرة دقيقة. كانت إلْدورازْنيلُو عنقودا من المنازل تقع إلى جانب ممرّ يفضي إلى النّهر.

طلبنا من سائق التّاكسي أن ينتظرنا. وطرقنا باب دكّان مغلق. خرجت امرأة وهي تجفف يديها بمنشفة الأطباق. سألناها إن كانت تعرف أين يعيش إيبانيز. فقالت إنّه على السّاحل في قطعة أرض يملكها المجلس البلديّ، وهي تقع خلف لوس ليناريس. شرحت لنا طريقة الذّهاب إلى هناك لأنّنا لم نكن نعرف المنطقة.

كان من الأيسر أن نذهب عبر النّهر. ولكن لم يكن هناك أيّ شخص بإمكانه أن يأخذنا. ولذلك عدتُ أنا ولويس إلى التّاكسي. وقادها الرّجل عبر طريق متّسخة، متحدّثا عن السّياسة طيلة الوقت ومحدّقا في مرآة الرّؤية الخلفيّة ليرى إن كنّا سنجيبه على كلامه. ولكن لم يحفزه أيّ واحد منّا. كنّا صامتين تماما مثل قاتلين محترفين. ورغم ذلك لم يكن شكلنا يوحي بالخطر. يبدو أنّ السّائق شعر بالتّوتّر إزاءنا. ولذلك ربّما لم يتوقّف عن الحديث طيلة الوقت.

كانت الطّريق سيّئة جدّا. وظلّت السّيّارة تهتزّ فوق الحفر الجافّة. وصلنا إلى مزرعة تسمّى لوس لاناريس. (حسبتُ أنّ المرأة قد قالت لوس ليناريس) كان هناك مدخل مغلق بسلسلة فضفاضة وقفل. نزلنا من السّيّارة. وحاولنا أن نرفع السّلسلة حتّى تمرّ السّيّارة تحتها. لكنّ ذلك كان مستحيلا. كان علينا أن نمشي على حافّة النّهر. فقد رفض السّائق أن ينتظرنا. فهمنا أنّه لا يرغب في البقاء هناك تحت الشّمس المتّقدة. دفع له لويس أجرة الرّحلة ومبلغا آخر مقدّما كي يعود ويأخذنا معه بعد ساعتين من نفس المكان.

انطلقنا عبر المسار الأبيض، مجتازيْن حقلا تتخلّله بعض الشّجرات القليلة. لم نكن نلبس أحذية مخصّصة للمشي على أرض وعرة. بالنّسبة إليّ كنتُ أرتدي حذاء دون كعب. أمّا لويس فقد كان لديه حذاء جميل غطّاه الوحل سريعا. بدأ يعدو منقطع الأنفاس. وسألني أن نأخذ استراحة. ثمّ مسح عرقه بواسطة منديل. وفجأة،

أطلقت طيور الطّيطاوات البراز على رأسينا وكأنّها كانت غاضبة من اجتياحنا. هي أيضا لديها موقف. فما الذي كنّا نفعله هناك وسط الخلاء تحت شمس قد أحرقت قفا كلّ واحد منّا؟

صارت الأشجار أكثر كثافة حين اقتربنا من النّهر. لا يمكن للشّاطئ أن يكون أبعد من هذا. واصلنا السّير حتّى وصلنا بعد مسافة قصيرة إلى بيت صغير مشيّد بالطّوب وإلى جانبه بضع أعمدة كانت ذات يوم زريبة. رأينا رجلا يُعرّي محرّكا في الخارج. سألناه أين يعيش إيبانيز. فطلب منّا أنّ نواصل السّير إلى أن نبلغ النّهر. ثمّ نستمرّ في التّقدّم على حافّته حتّى ندرك حافلة قديمة. هناك يمكننا العثور عليه.

مشينا على حافّة حقل قصب. ثمّ وجدنا بركة ماء مكسوّة بنبات ورد النّيل، تلتها رقعة من الأشجار الشّائكة. وأخيرا أدركنا ضفّة النّهر. كان من الغريب أن ترى النّهر من الجهة الأخرى كما لو أنّه كان يتدفّق في الاتّجاه المعاكس وكأنّ الماء كان يرتفع والزّمن يتقدّم إلى الخلف. سرنا على امتداد الشّاطئ وعبرنا سياجا من الأسلاك الشائكة حتّى رأينا في النّهاية حافلة رماديّة دون عجلات مُستندة إلى أربعة براميل ومسقّفة من جهة واحدة بمظلّة معدنيّة. اقتربنا أكثر. وصفّقنا بأيدينا. ما من أحد. ولم يكن هناك أيّ قارب مقيّد في الماء. قدّرنا أنّ إيبانيز قد خرج للصّيد حتما. فجلسنا على صندوقين في ظلّ شجرة قرب نار منطفئة. وتحدّثنا قليلا عن مسألة نقل خمس وستّين لفافةَ رسم إلى هذه الجهة من النّهر. علينا أن نجد قارَباً ومهرّبا مستعدّا للقيام برحلات عديدة. علينا أن ننظر في الأمر جيّدا. أكلنا البسكويت الذي أحضرتُه معي في الحقيبة. ومرّت ساعة ونحن على تلك الحالة.

وحين كنّا نتأهّب للمغادرة، ظهر رجل على قارب في النّهر. كان يصفّر لحنا ويتقدّم ساهما، فلم نستطع تبيّن وجهه من تحت الحافّة

المنكسرة لقبّعته. عندما لمحنا، استخدم المجداف ليبطئ سرعة القارب. وحدّق فينا من مسافة آمنة. لقد بدا أكثر فتوّة من أن يكون إيبانيز.

«صباح الخير» قلتُ بصوت عالٍ ولطيف حتّى أطمئنه لأنّني فهمتُ أنّه لم يكن سعيدا لرؤية غريبين يقفان هناك بانتظاره خارج بيته مثل شبحيْن. «نحن نبحث عن فرمين إيبانيز»

«فرمين إيبانيز؟» قال، وقد أتاح لنا رؤية وجهه.

«هل أنت هو؟»

«لا. فرمين عمّي. لقد مات منذ زمن»

«هل أنت ابن أخيه؟» سأل لويس رغم أنّ الأمر كان جليّا.

«نعم. ما الذي تبحث عنه؟»

«أردنا أن نعرف إن كان عمّك فرمين ما زال محتفظا بلفافة من القماش، كان والدنا خوان سالفاتييرّا قد رسمها من قبل. لفافة بهذا الحجم». قلتُ مُشرِعا يديّ. «لفافة عليها رسوم».

ظلّ الرّجل يحدّق فينا صامتا.

«عمّك كان صديقا لأبي»

صار أقلّ ريبة الآن. فتقدّم أكثر إلى الضّفّة. وقفز إليها. ثمّ ربط حبلا بجذع شجرة ساقطة. وعلّق حبلا على كتفه. وقدم إلى حيث نقف. لم يمدّ يده للمصافحة.

«هل لديك أيّ فكرة إن كان عمّك يملك تلك اللّفافة؟»

«نعم. لقد كانت عنده» أجاب الرّجل. «احتفظ بها هناك في محرّك الشّاحنة، مغطّاة بالأكياس. ثمّ سُجن بعد ذلك. وتُوفّي»

«إذن أين هي الآن؟»

«لقد أعطيتُها منذ سنوات عديدة»

«أعطيتها؟»

«نعم... لصوريا رئيس مزرعة لوس لاناريس التي تقع بالقرب من هنا. لم يدفع لي ثمنها مطلقا. قال إنّه سيمنحني فرسا ومهرها. ولكنّه لم يفعل أبدا»

أفرغ إيبانيز محتويات كيسه على الرّمل. فسقطت سمكة لزجة (النّمر الضّخم) وقليل من أسماك السابالو. شرع في تنظيفها هناك في الماء وهي لا تكاد تكون مرئيّة تحت السّطح... سمكات صغيرة تعض المداخل إذْ تسقط.

«هل لديك علمٌ إن كان صوريا هذا قد احتفظ بها؟»

«لا. لا أعرف. لقد قال إنّه يريدها للزّينة»

أنهى إيبانيز تنظيف السّمكات وإعدادها. وإذ لاحظ أنّنا لم نقم ولو بحركة واحدة، دعانا للأكل معه.

«ليس الطّعام فاخرا. ولكن يوجد الكثير لكلّ واحد منّا. ولديّ بعض النّبيذ كذلك»

قال له لويس إنّنا بانتظار سيّارة تاكسي ستجيء خلال وقت قصير. وقد كان راغبا في قبول دعوته بسعادة. سكب إيبانيز قليلا من النّبيذ الدّافئ في كأس.

وبينما كان يشعل النّيران، قال لنا إنّه يذكر منذ البداية أنّ اللّفافة كانت محفوظة في طفولته تحت غطاء الحافلة. شعر خلال مناسبة وحيدة بالفضول إزاءها فأراد أن يكتشف ما فيها. لكنّ عمّه قد جلده بالسّوط عقابا له. كان هذا المكان ملكا للمجلس البلديّ، يستخدمه لتجميع الأغصان المقطوعة حتّى يستفيد منها في تشييد الطّرقات. انتُدب فرمين إيبانيز للاهتمام بالأشغال. وفي المقابل، سُمح له بالعيش في الحافلة القديمة. ثمّ نفدت الأغصان بعد ذلك. وحملت

الآلات بعيدا. واصل عمّه العيش في المكان نفسه لسنوات عديدة قبل أن يتمّ إيقافه لقتل رجل في جنوب باياسنْدو أثناء شجار في حانة. لقد مات في السّجن. وكان ابن أخيه قد استقرّ في الحافلة. لاحقا، بدأت المنطقة تعرف بصيدها. وقد فتح الشّابّ متجرا للمشروبات والشّواء. بعد ذلك حين كان يقيم إحدى الاحتفالات هناك، قدم النّاس من جميع الأنحاء حتّى من الأرجنتين والبرازيل. وأخبرنا إيبانيز أنّه أثناء واحدة من تلك الاحتفالات فتح اللّفافة وعرضها على الحضور. فاقترح صوريا الذي اقتنى حديثا مزرعة لوس لاناريس أن يقايضها بفرس ومهر. كان صوريا مغرما بالأحصنة حدّ الجنون. واستنادا إلى إيبانيز يصوّر قسم من القماش بعض أنواع خيول السّباق. كان عمر إيبانيز آنذاك خمس عشرة سنة. وقد قبل اقتراح صوريا وساعده في شحن الرّسم في صندوق سيّارته. لكنّه لم يحصل على شيء مطلقا. اعتاد أن يلاحق صوريا من حين إلى آخر. فيجيبه الرّجل العجوز في كلّ مرّة قائلا: «إنّني أضع جانبا فرسا صغيرة وجميلة من أجلك». ورغم ذلك فإنّه لم يوف بوعده أبدا. لقد مات صوريا منذ خمس سنوات. وانطلقت محاكمة قضائيّة بين أبنائه وبعض الدّائنين حول الممتلكات التي صارت الآن مهملة.

(32)

«هل أنت متأكّد أنّه ما من أحد هناك؟»

«الشّخص الوحيد المتكفّل بهذا المكان يعيش عند المدخل. وهو دائما سكران أو في المدينة»

احتجنا إلى بعض الوقت حتّى نرتّب أفكارنا. وبالأحرى، فقد احتجت إلى بعض الوقت حتّى أقنع لويس الذي لم يرد منذ البداية أن يعرف شيئا. في النّهاية قَبِلَ على مضض أن يصعد إلى الزّورق. طلبنا من التاكسي أن يعود بمفرده. وقد كان ذلك بالنّسبة إليه شبيها بإحراق الجسور التي تمتدّ أمامنا. أخذَنا إيبانيز عبر النّهر إلى مزرعة لوس لاناريس. من المحتمل أنّني شعرتُ بالسّعادة بسبب النّبيذ الذي تصاعد إلى رأسي، خاصّة وأنا أتفرّج في أخي كاتب العدل جالسا في هذا الزّورق الصّغير الموحل متشبّثا بطرفيه ومعدّلا نظّارتيه برعشة سريعة من إبهامه، وكأنّه كان يخشى أن يسقطا في الماء. تبعنا طريق السّاحل دون الحاجة إلى التّجديف. فقد حملنا التّيّار على امتداد المسافة الفاصلة بشكل بطيء ولكنّه مؤكّد. وبعد فترة، بدأت أشجار الأوكاليبتوس والصّنوبر تتّخذ مكان الشّجيرات الشّائكة الأصليّة. أخبرنا إيبانيز أنّ المنزل يقع خلف حاجز الأشجار. واصطحبنا معه إلى الضّفّة. نزلنا من المركب إلى رصيف صغير حيث الأعمدة الخشبيّة واقفة بمفردها.

«سأعود لاحقا» قال إيبانيز وهو يجدّف ضدّ التّيّار.

وقفنا هناك محدّقيْن حولنا. لم يعد لدينا الآن سوى أقدامنا لنعوّل عليها. بدأنا نبتعد ببطء عن النّهر. كان لويس يلهث من التّعب. فيقول من حين إلى آخر: «علينا أن نطلب الإذن قبل كلّ شيء»، «إن وجدنا المكان مغلقا، نرحل على الفور»، «ما الذي نفعله هنا بحقّ الأرض؟»، «أنا هو الأحمق لأنّني أتّبع رأيك». وفجأة ظهر البيت من بين الأشجار: مبنى حجريّ كبير ببرج عال وشرفات عديدة. وصلنا إلى موقف.

«ثمّتَ حتما أشخاص هنا». قال لويس.

عبرنا فوق العشب في تلك الرّقعة التي كانت ذات يوم حديقة المنزل، ونحن نقفز فوق جذوع الأشجار السّاقطة والأغصان الجافّة وعبر شجيرات الشّوك التي تصل إلى مستوى الرّأس. وظللنا نتوقّف مرارا حتّى لا تحدث أوراق الأشجار ضجيجا فنتمكّن من الإصغاء إلى أيّ صوت محتمَل. ولكن لم ينبح أيّ كلب. كان الصّوت الوحيد الذي يُسمع طنينا يشبه صوت حشرة الزّيز أو الدّبابير. وقد بدا قادما من بيت المزرعة. وفجأة، أفزعنا طائر التناميات. فقد أطلق صراخه من خلفنا وصفق جناحيه بقوّة. وصلنا إلى الفيراندا. لقد أسقطت العواصف بعض المزاريب على الأرض. ونمتْ نتفٌ من العشب في شقوق بلاط الأرضيّة. وكانت هناك أعشاش طيور على الأرض. بدا المكان مقفرا تماما. تجوّلنا في أنحاء البيت. عند الواجهة، صفّق لويس بيديه. ثمّ طرق الباب. ولم يجبه أحدٌ. فدفعه. لكنّه كان موصدا.

حاولنا أن نمعن النّظر من بين قضبان النّوافذ. لكنّنا لم نستطع تبيّن شيء سوى الأشكال الشّاحبة للأثاث وسط الظّلام. أعدنا الطّواف بالبيت مرّة أخرى. فعثرتُ على باب خشبيّ نصفه السّفليّ شبه فاسد. انحنيتُ إلى الأسفل لأرى إن كان بإمكاني أن أقتلع جزءا

صغيرا منه. رغب لويس في المغادرة. لكنّني تظاهرت بعدم سماعه.

«ما الذي ستفعله الآن؟ هيّا ادخل إلى البيت واسرقه»

جعلني كلامه أشعر بالسّخط. فاستقمتُ واقفا. وقلتُ له إنّني لن أسرق أيّ شيء. بل بالعكس، إنّني أحاول استعادة شيء قد سُرق منّا سلفا.

«إن كنتَ ستحافظ على نحيبك هذا طيلة الوقت، فإنّني أفضّل أن ترحل الآن». قلت له ذلك. فمشى مبتعدا بين الأشواك.

حاولتُ أن أهلهلَ الباب. فضربته مرّات عديدة. ودفعته بكتفي حتّى أخلعه. صعّدتُ كلّ غضبي المكبوت تجاه أخي إزاء الباب. واستمرّ الأمر كذلك لفترة طويلة. كلّما ازداد تعبي، استرحت قليلا. ثمّ استأنفتُ من جديد. الآن وقد قطعتُ شوطا كبيرا في هذه المسألة، لن أسمح لباب قديم أخرق أن يقطع عليّ طريقي. تابعتُ عملي مصرّا. لكنّني لم أحصل على شيء سوى بعض الشّظايا الإضافيّة. وفجأة، سقطتْ قطعة كبيرة من الخشب أمامي. قفزتُ إلى جهة واحدة كي أتجنّبها. وكان لويس قد ظهر من جديد حاملا غصنا هائلا. ودون أن يقول كلمة واحدة، دفعه إزاء الخشب الفاسد حتّى يحدث تأثيرا. وفي النهاية استطعنا معا أن نسحق الجزء الواطئ من الباب. فنُعمل فيه ثقبا كافيا لأحدنا كي يزحف من خلاله.

«أنت أوّلا». قال لي. فسلكتُ طريقي إلى الدّاخل.

بدا الأمر شبيها بالدّخول إلى رائحة... رائحة غاز الأمونيا ورائحة العفن التي كانت أشدّ من قدرتي على تنفّسها. كان عليّ أن أمسك بأنفي. فقد كانت هناك رائحة خفافيش تضوع في المكان. وقفتُ هناك في الظّلام. وتلمّستُ الجدار بيدي، فاصطدمَتْ بشيء مّا مصنوع من الصّفيح.

«ما الذي يحدث؟» سأل لويس، وهو يتابع الزّحف تحت الباب.

«لا شيء. ولكن انتبه. توجد أشياء معدنيّة هنا»

حين اتّسعتْ عيناي بعد أن اعتادتا على الظّلام، لاحظتُ أنّنا كنّا في مكان لحفظ اللّحوم. تسرّب الضّوء من خلال الثّقب الذي أحدثناه في الكوخ. فتحنا بابا طويلا. وخطونا داخل رواق حيث الهواء أيسر للتّنفّس ولكنّنا لم نزلْ مُحاطين ببرودة الشتاء الرّطبة. تقدّمنا إلى الأمام. كانت هناك أبوابٌ في كلّ جهة. لكنّها موصدة. لم نستطع تبيّن أيّ شيء عند نهاية الرّواق البعيدة. بلغنا زاوية جانبيّة. وقد حسبنا في البداية أنّ الرّواق على شكل حرف اللاّم (لـ) أو النّون (ن). ثمّ اكتشفنا في النّهاية أنّه مربّع الشّكل لأنّنا وجدنا أنفسنا عائدين إلى نفس الباب الذي انطلقنا منه. شرعنا حينئذ في فتح بعض الأبواب على جهة اليمين. رأينا مطابخ بقدور وأوعية متدلّية من الجدار وبعض الغرف الكبيرة فيها سجّادات وحليّ من الخزف وكذلك مكتبا وثلاثة حمّامات. فتحنا بابا داخل الرّواق. لكنّنا لم نستطع رؤية أيّ شيء.

«ماذا يوجد هناك؟» سأل لويس.

«المكان مظلم تماما». ومن الصّدى، أدركنا أنّ الغرفة واسعة جدّا.

دخلنا. ولم نستطع الرّؤية بوضوح. فأشعل لويس ولاّعته. وبواسطة شعلتها الخافتة، رأينا بعض الكراسي وغرفة الطّعام وخلفنا حيوانا مستندا إلى قائمتيه الخلفيّتين محدّقا فينا. إنّه جرذ ضخمٌ بحجم خنزير صغير. تسلّلنا مبتعدين عنه.

«ما الذي رأيناه للتّوّ؟»

وقفتُ في مكاني متجمّدا. ولم أقل شيئا.

«هششش...هيّا اخرجْ». قال لويس. ثمّ ختم قدمه على الأرضيّة بقوّة حتّى يخيفه. لكنّه لم يتزحزحْ.

ضحكتُ بقوّة لأنّني اكتشفتُ حينئذ أنّه كان في الحقيقة دمية خنزير الماء. لكنّ الشّعلة التي تومض من الولاّعة جعلته يبدو حيّا ويتنفّس. جسّه لويس بقدمه. فأصدر صوتا أجوف. ثمّ رفع مصدر الضّوء عاليا فوق رأسينا. فبدت خيالاتنا في كلّ مكان حولنا. لقد كان فضاء واسعا جدّا استُخدم في الماضي غرفة معيشة وغرفة طعام في الآن نفسه. عندما تخلّصنا من خوفنا. غادرتُ الغرفة. وبدأتُ أفتح بقيّة الأبواب.

«ما الذي تفعله؟» سأل لويس بصوت بدا شبيها بصراخ مكتوم.

لم أجبه. كنتُ أحاول أن أفضيَ مزيدا من الضّوء. قطعتُ الرّواق حتّى آخره، فاتحا الأبواب في كلتا الجهتين. تدفّق ضوء النّهار من الغرف المواجهة للخارج حتّى أدرك الأفضية المصندقة في الدّاخل. كنتُ على وشك أن أنهي دورتي حين سمعتُ أخي يقول شيئا مّا. رجعتُ إلى الغرفة المركزيّة الكبرى. فرأيتُه ينظر إلى الأعلى. اقتفيتُ الاتّجاه الذي كان ينظر إليه. لكنّني لم أستطع في البداية تمييز أيّ شيء. وتوصّلتُ أخيرا إلى رؤية شيء بين السّقف وأعالي الأبواب: سلسلة من الأشكال، نوع من الإفريز يزيّن الجدران على امتداد الغرفة. إنّها لفافة سالفاتييرّا هناك. ورغم أنّ ضوء الشّمس كان يدركنا نحن فقط وبشكل خافت، فقد استطعنا رؤية الأحصنة وبعض الحوافّ لكائنات بشريّة. اجتاحني شعور هائل بالارتياح. إنّ هذا هو الجسر والرّابط الذي سيملأ الهوّة التي لطالما أزعجتني في عمل أبي. على الأقلّ، سوف يُزاح عنّي ثقل ذلك الصّدع. شعرتُ بتلك اللّذّة التي تلي إنهاء شيء مّا بعد عناء طويل حتّى يصبحَ منسابا ومتّصلا.

«علينا أن ننزلها». قلتُ له. وشرعنا في العمل على الفور.

(33)

كان علينا أن نشيّد سقالة انطلاقا من قطع الأثاث. وضعنا في الأسفل طاولة الطّعام الكبيرة. وشكّلنا فوقها صفين اثنين. يتكوّن الأوّل من مِقصف (بوفيه) والثّاني من طاولتين صغيرتين وكرسيّ. سمحتُ للويس بتسلّق المقصف لأنّه يحتاج بتلك القامة الطّويلة التي يملكها إلى العنصر الأكثر ثباتا. اكتشفنا أنّ القماش موثوق بواسطة المسامير إلى لوحات طويلة. فحاولنا انتزاعها من الجدران. لكنّ الأمر لم يكن ممكنا. إذْ لم نكن نملك الأدوات اللاّزمة. بحثتُ في المطبخ عن شيء يمكن استخدامه. فحملتُ معي بعض السّكاكين. وفي النّهاية، وجدنا أكثر الأشياء إفادة وهي قواعد بعض الشّمعدانات القاسية التي انزلقتْ تحت المسامير واقتلعتها من مكانها. لكنّ ذلك كان عملا ضخما. كنّا في كلّ مرّة نفكّر في تركها والعودة في اليوم التّالي مصطحبيْن بعض الأدوات الخاصّة والسّلالم. لكنّنا نعود إلى العمل مجدّدا بعد استراحة قصيرة.

رأينا جزءا من القماش يصوّر خيول السّباق، وهي متوتّرة قبل الانطلاق، كابحة جماحها ومنتصبة لكنّ مظهرها بدا مرهفا مثل وحوش غاضبة ومنتصبة بكياسة على أطراف حوافرها. ثمّ بدت لحظة الانطلاق نفسها، حين بدتْ فراؤها على وشك أن تقفز من الرّسم... جوادٌ كستنائيّ، فرس ذهبيّة اللّون، جوادٌ آخر أسمر ناريّ ورماديّ

مرقّط يلمعون بنور أبيض تحت الشّمس. إنّهم ينفجرون جميعا من البوّابة كالينابيع بأجسادهم الضّخمة والمهدّدة مثل الثّيران في رسوم الكهوف الأولى. يتشبّث ركّابهم الصّغار بظهورهم غير قادرين تماما على التّحكّم بقوّتهم المنفلتة.

كلّما توصّلنا إلى اقتلاع خمسة أمتار تقريبا، كان علينا أن ننقل السّقالة المرتجلة. وكان الأمر متعبا جدّا. ورغم أنّنا كنّا حريصيْن على التّكتّم، فقد بدا أنّ الجلبة التي يحدثها تحريك الأثاث يمكن أن تسمع على بعد كيلومترات. قضّينا المساء برمّته على هذا النّحو. بدأت البثور تنتشر في يديّ. وصارت أكتافنا ورقابنا أكثر ثقلا بسبب المحافظة على سواعدنا فوق رأسيْنا طيلة الوقت. شعرتُ بالعطش. وخرجتُ أبحث عن الماء. ذهبتُ إلى المطبخ لكنّني لم أجد شيئا. لقد انقطع أيّ تزويد عن البيت.

حاولنا اقتلاع المسامير من خلال سحب القماش معا. لكنّ ذلك لم ينفع. بل ساهم في تمزيق القماش. ولذلك اضطررنا إلى اقتلاعها واحدا تلو الآخر. ندفع الشّمعدان كي ينزلق بين المسمار والحائط. ثمّ نضغط بقوّة حتّى يندفع المسمار محدثا جلبة خفيفة قبل أن يستقرّ على بلاط الأرضيّة. وصلنا إلى قسم من الرّسم يعرض امرأة ذات عينين مُضيئتين بدتْ مألوفة بالنّسبة إليّ. طلبتُ من لويس أن يقدّم لي ولاّعته. قرّبتُ الشّعلة من القماش. ثمّ تحقّقتُ من الأمر.

«هذه المرأة كانت زميلة أبي في مكتب البريد»

«هل أنت متأكّد؟»

«نعم» قلتُ. «أنا متيقّن من هذا»

لقد كانت يُوجينيا راكامورا مرسومة بواسطة التّذكّر عاريةً في سرير من أسرّة غرف النّوم السّرّيّة في بارّانكالس. انكسرت شمس الظّهيرة على مصراع النّافذة ثمّ سقطت على وركها الفتيّ.

«لقد التقيتُ بها في ذلك اليوم. إنّها المرأة التي حدّثتك عنها. وهي من أخذتني في جولة داخل مكتب البريد»

كان هناك المزيد من صور يوجينيا راكامورا. ورغم أنّ وجهها لم يكن واضحا دائما، فقد كان من اليسير التّعرّف عليها. كانت نائمة أحيانا وشعرها الكستنائيّ ينسكب على الأوراق. وفي مواضع أخرى، كانت تقرأ كتابا وهي تتمدّد عارية في ضوء أبيض يتدفّق إلى غرف يفضي بعضُها إلى بعضٍ. رغم أنّها كانت مناسبة واحدة مكرّرة من زوايا مختلفة، فقد رسَمها سالفاتييرّا كما لو كانت بيتا ذا غرف عديدة داخله... بيت القيلولة التي قضّاها مع تلك المرأة.

أعتقد أنّنا ذهلنا معًا لأنّه ما من أحد فينا قد كان يملك أدنى شكّ في وجود هذه الرومانسية. وأظنّ أنّ أمّي كذلك لم تعلم شيئا عن الأمر. لعلّها على العكس من ذلك كانت قد اكتشفته لكنّها حرصت على وضع حدّ له. لم يكن هناك أيّ شكّ أنّ سالفاتييرّا قد أقام علاقة مع يوجينيا راكامورا على الأرجح سنة 1961، السّنة نفسها التي رسمت فيها هذه القطعة. فقد بدا واضحا أنّه أمر ليس متخيّلا وإنّما مشاهد رُسمت بعيْد وقوعها، يوما بعد يوم كأنّها يوميّات مخصّصة لفترة القيلولة.

لا توجد طريقة للتّثبّت من ذلك. يمنح الرّسم الانطباع بأنّها علاقة وجيزة، سلسلة من اللّقاءات قد تمتدّ لشهر مثلا. من يدري؟ لعلّها دامت سنة كاملة لكنّ ذاكرة سالفاتييرّا قامت بتكثيفها لاحقا. تبدو علاقة قصيرة، مستحيلة الاستمرار وعميقة مثل وميض الضّوء الذي يخترق رسْمه. لا بدّ أنّهما قد قرّرا الانفصال في مرحلة مّا. إذْ لم يكن من الممكن أن تستمرّ تلك العلاقة. لقد كانت في الخامسة والعشرين. أمّا هو ففي الثّانية والخمسين وهو متزوّج. تلك فضيحة أكبر بكثير

ممّا تحتمله مدينة صغيرة كمدينتنا.

ما أن حرّرنا اللّفافة من الحائط، حتّى بدأت بالتّداعي فوقنا. ولوهلة، بدت صورة المرأة العارية توشك على السّقوط فوق لويس تماما. كان متعبا يشعر بالسأم والانزعاج إزاء اكتشافه لخيانة أبي. بعد أن حرّرنا ثلاث جهات من القماش، توقّفنا لنستريح قليلا. وكانت السّاعة الخامسة حينئذ. جلس لويس يدخّن على إحدى الكراسي المكسوّة بالغبار. ومن حين إلى آخر يلقي ملاحظة ارتياب.

«كان علينا أن نتركها هنا في هذا العفن يا ميغيل. إنّنا نقحم أنفسنا في مسائل غير محمودة. ما كان علينا أن ننبش في الماضي بهذه الطّريقة. أليس كذلك؟»

جلستُ على الكرسيّ الآخر. ولم أجبه بشيء. فتابع:

«إنّ ما يحدث لشخص مّا ينتمي لزمانه هو. كان ينبغي أن لا تنقّب عنه. فترفعه إلى السّطح. ثمّتَ حكمة مّا في بقائه منسيّا. على كلّ شخص أن يعيش حياته الخاصّة ويترك الموتى يرقدون في سلام»

ذكّرته بأن لا أحد منّا قد امتلك نصيبا وافرا من حياته الخاصّة. وفكّرتُ في ذهابه كلّ ليلة إلى السّوبر ماركت ليشتري صدر دجاج وقليلا من السلطة دون أن يذكر ذلك.

كنتُ أحاول دفع لويس لتغيير اتّجاهاته. فلطالما صارع ضدّ الحضور الكلّيّ لسالفاتييرّا عبر محاولة دفنه في الزّمن. هكذا شيّد حياته. والآن وهنا، ها أنّي أدفعه لمقاومة ذلك مثلما فعلتُ. بعبارة أخرى، كنتُ أعبر ذلك العالم الفسيح إلى أن أدركتُ حدوده.

حدّقتُ مليّا في القماش المتدلّي. وقلتُ للويس محاولا أن أحتجّ لموقفي: «هل تذكر تلك الحركة التي قام بها في المصحّة حين سألناه عمّا نفعله برسمه؟»

«لقد فعل هكذا». أجابني لويس وهو يعيد حركة اليد تلك التي قام بها سالفاتييرّا.

«نعم. لكنّه رفع إصبعه بعد ذلك إلى وجنته وأشار إلى أمّي إذْ سألنا أن نهتمّ بها»

«ماذا تقصد؟»

«في ذلك الوقت ظننتُ أنّه يقصد: انتبها لأمّكما. اعتنيا بها. أمّا الآن فأظنّه كان يقول: افعلا ما تريدانه بلفافات الرّسم. ولكن، انتبها لأمّكما. لا تسمحا لها برؤية الأشياء التي رسمتُها»

«هذا ممكن...لم يكن راغبا في خروجها كلّها إلى الضّوء»

«حسنا. ولكنّ الأمر قد تمّ الآن. ولن يؤذي أحدا على كلّ حال»

سكتنا معا كي لا نعود من جديد للجدال حول المسألة القديمة نفسها.

«علينا أن نتركها هنا في الجانب الأوروغوانيّ» قال لويس محاولا تغيير الموضوع. «يمكننا إعطاؤها لإيبانيز. وبهذا الشّكل تكون لدينا لفافة واحدة على الأقلّ خارج الأرجنتين»

عدنا إلى العمل بسرعة لأنّ آلدو وبوريس وحنّا سيكونون بانتظارنا من أجل حفل الشّواء. كان القسم الأخير هو الأصعب بسبب البثور. وكان عليّ أن ألفّ منديلا حول يديّ. نزعنا قسما آخر يظهر فيه نهرٌ ترسو على حافّته مراكب فارغة في برد الصباح وتتجمّع أخرى في وسط التّيّار مع رجال يتحلّقون في نوع من الاجتماعات السرّيّة. هناك رجلان يتصارعان على الشّاطئ. كان الرّسم برمّته غريبا وبشكل مّا مخيفا. لم تكن لدينا أيّ فكرة عمّا سنجده لاحقا.

تظهر امرأة سوداء عارية عند نهاية مقطع النّهر شبيهةً بروح تائهة تفرّ بين أغصان البرسيكاريا وأوراقها. وبينما كنّا ننزلها، لاحظتُ أنّ هذا القسم قد خِيطَ بشكل قُطْريّ من أجل ترقيعه وإصلاحه. إنّه

التّمزّق الذي أحدثه فرمين إيبانيز خلال الشّجار الذي دار في الكوخ في تلك اللّيلة، حين كنتُ في الحادية عشرة من عمري.

بدا لويس غير مهتمّ عندما أخبرته بهذا الأمر. ولعلّه كان مرهقا جدّا. فلم يجبني. لم يقل كلمة واحدة حتّى أنهينا عملنا كلّه. وما أن استقرّ القماش على الأرضيّة حتّى لففْناه ورفعناه إلى أعلى باتّجاه النافذة. خطرت للويس فكرة أن نلفّه من جديد ولكن بواسطة عمود في الوسط كي نستطيع حمله على أكتافنا. استخدمنا الغصن الذي كان يستعمل رافعةً. ثمّ دفعنا القماش إلى خارج النّافذة. وحملناه فيما بيننا. وكان ثقيلاً ثقلَ رجل بالغ.

(34)

وصلنا إلى النّهر حين كانت الشّمس بصدد الغروب. كان إيبانيز بانتظارنا هناك. وما أن رآنا قادميْن حتّى سحب بعض حبال الصّيد وساعدنا في شحن اللّفافة على القارب. سألناه إن كان بإمكانه أن يأخذنا عبر النّهر إلى الجهة الأخرى.

«نعم...ولكن هناك حرس السّواحل»

«ما الذي يمكن أن يفعلوه بنا؟» سألتُه.

«حسنا، إنّهم لا يحبّذون عبور النّهر في اللّيل»

«كم ندفع لك مقابل الرّحلة؟»

«خمسون»

سحب لويس خمسين بيزو. وأعطاها له. ذهبنا في البداية إلى مكان إيبانيز. وتركنا اللّفافة هناك. غلّفناها بمُشمّع. ثمّ غطّيناها بقطع من الحديد المموَّج. قدّم إيبانيز لنا العون دون أن يقول كلمة واحدة. ولمّا لاحظتُ رغبته هذه في مساعدتنا، سألتُه إن كان يعرفُ شخصا يملك مركبا أكبر يمكنه أن يسع أشياء أخرى ويعبر النّهر في اللّيل. فقد كنّا عاجزين على تحميل ما هو أكثر من لفافتين في مركبه هو. رسم ابتسامة أخرى خجولة. وسألني عمّا نودّ فعله.

«المزيد من اللّفافات من هذا النّوع» أجبتُه.

«كم عددها؟»

«حوالي ستّين لفافة»

«متى تفكّر في القيام بهذا؟»

«غدا أو بعد غدٍ كحدّ أقصى»

«عندما تجيء ستجدني قد أعددتُ لك شيئا مناسبا»

صعدنا من جديد إلى مركبه. وقد كان اللّيل يهبطُ شيئا فشيئا. أخذ إيبانيز يجدّف ومقدّمة المركب موجّهة مباشرة نحو السّاحل الأرجنتينيّ. ولمرّات عديدة كان يرفع مجاديفه ويتّخذ استراحة. ولنصل بشكل أسرع قرّرنا أن نتّجه في خطّ مستقيم. ثمّ نتّبع الخطّ السّاحليّ إلى أن نصل إلى الكوخ. لا ريب أنّ ضيوفنا قد شعروا بالقلق. بإمكاننا أن نمشي حتّى البيت ثمّ نعود في اليوم التّالي إلى السّيّارة التي تركناها عند رصيف الجمارك. كنّا ثلاثتنا هادئين. والأصوات الوحيدة التي كانت تُسمع صوت المجداف والماء المرتطم بحوافّ المركب وكذلك صوت تنفّس إيبانيز. ثمّ شرع ذباب الخيل في محاصرتنا والطّنين حول آذاننا.

لمحنا أثناء الطّريق مركبا آليّا ذا كشّافات قويّة. رآه إيبانيز كذلك. ولكنّه لم يقل شيئا. بل تابع التّجديف وفق الإيقاع نفسه. لقد مرّ المركبُ مسرعا دون أن يعيرنا أيّ انتباه.

«إنّهم حرس السّواحل» قال إيبانيز إثر مرورهم. «إنّهم بمثابة ألم حقيقيّ في المؤخّرة»

تقدّم اللّيلُ بسرعة حتّى استطاع كلّ واحد منّا أن يلمح وجه الآخر، ولو بصعوبة، طبعا، باستثناء الطّيف القاتم لإيبانيز إزاء السّماء البرتقاليّة. وخلال إحدى استراحاته، سألته إن كان يريدُ أن أجدّف في مكانه.

«لا. أنا بخير» قال. ثمّ بدا لي كما لو أنّه تجمّد لوهلة. تساءلتُ عمّا كان يفعله حينئذ. وفجأة، انطلقت يده وأمسكت ذبابة كانت تضايقه على مقربة من وجهه. نفضها في النّهر. ثمّ تابع التّجديف.

جلستُ هناك صامتا ومذهولا أحدّق في مظهره. من هو هذا الرّجل الذي يجدّف بنا؟ كنتُ متوتّرا ومرتبكا. نحن في منتصف النّهر فقط مع بعض الأضواء القليلة التي تومض عند الضّفّة البعيدة.

توجّهنا عبر التّيّار إلى الرّصيف القديم.

«احذرا. لا تصدرا أيّ صوت. ولا تشعلا سيجارة هنا. إنّهم يطلقون على أيّ مركب يمرّ في هذه الأنحاء»

«لماذا؟» سأل لويس.

«من أجل المتعة وممارسة القنص» أجاب إيبانيز. «الكثيرُ من الفتيان المدمنين»

وسط الصّمت المطلق، سمعنا فجأة ضجيجا على مسافة قريبة. بدا الأمر شبيها بحفلة كبيرة. ثمّ رأينا توهّجا في السّماء... بقعة مشعّة من الضّوء.

شعُرنا بمقدّمة المركب تصل إلى الرّمل. فقفزنا إلى الأرض. «سنراك بعد أيّام قليلة» قال لويس.

«استمتعا بوقتكما» أجاب إيبانيز. ثمّ شرع في التّجديف مجدّدا.

كان على وشك أن يختفي في الظّلام حين ناديتُه: «إيبانيز؟»

«ماذا؟»

حاولتُ أن أنظر إليه. لكنّ عتمة اللّيل ابتلعته. ورغم ذلك، فقد بدا صوته قريبا ربّما بسبب التّأثير الغريب الذي يجعل الصّوت يطفو فوق المياه النّاعمة دون أن يفقد قوّته.

«هل أمّك ميّتة؟»

«نعم. منذ زمن بعيد» أجاب منغمسا في الظّلال.

«هل كانت سوداء؟»

«نعم، كانت كذلك»

«وأبوك؟»

«لم أعرفه أبدا»

«هل تعرف أيّ شيء عنه؟»

لم تصل إجابته لوهلة. ثمّ سُمع صوته مجدّدا من مسافة أبعد: «فقط أنّه كان أبكم»

(35)

تسلّق لويس الضّفّة. وبدأ يمشي بسرعة دون أن يلتفت وراءه. هل سمع ما سمعتُه للتّوّ؟

«لويس» ناديتُه من خلف. «لويس»

لم أره إذ التفت إليّ. اكتشفتُ فقط أنّه فوقي تماما وأنّه قد مزّق قميصي:

«كيف يمكن لك أن تسأله ذاك السّؤال؟ كيف؟»

حاولتُ أن أحرّر نفسي. لقد شعرتُ بنفس الصّدمة التي اكتسحتْهُ. كنتُ أصيحُ به حتّى يتركني. ثمّ أمسكتُ يديه. ودفعتُه بعيدا عنّي، وانطلق الصراع.

«اتركني». كنتُ أصرخ. لكنّه ظلّ يهزني بقوّة.

«كيف أمكن لك أن تسأله ما سألت؟»

دفعتُه بقوّة. فسقطنا معا على الأرض. كنّا كما لو أنّ الظّلام قد سلبنا سنواتنا. تعاركنا مثل مراهقيْن. لم يتركني لويس. وبدأت كلاب المنطقة تنبح. بدا الأمر مثل عراك سكّيريْن. ومرارا، قلتُ له إنّه لم يكن خطئي. وفي النّهاية نجحتُ في الوقوف على قدميّ. وإذ انفكّت قبضة لويس عنّي، جلس في وسط الطّريق المتّسخة.

انتظرتُه. ولكن حين تابع جلوسه في نفس المكان لفترة طويلة، شرعتُ في المشي مبتعدا عنه. سمعتُه يلحق بي. هل نملك أخا غير شقيق؟ ربّما

أنجب سالفاتييرّا ابنا من تلك المرأة السّوداء التي تظهر في قماش اللّوحة؟ جنّ الصّيّاد إيبانيز في ليلة السّكر تلك داخل الكوخ حين تعرّف على أخته في الرّسم. ومن المحتمل أيضا أنّه علم بحمل أخته من سالفاتييرّا. ولذلك قام إيبانيز بتمزيق اللّفافة ثمّ سرقتها لاحقا أو لعلّه تعاون مع جوردان لفعل ذلك. هل كان الأمر على هذا النّحو؟ تماما مثلما كانت علاقته مع يوجينيا راكامورا، المرأة التي تعمل في مكتب البريد. هل من الممكن أن توجد نساء أخريات لن نكتشفهنّ أبدا؟ وأبناء آخرون كذلك؟

شعرتُ بالإضافة إلى تعبي الشّديد بأنّ هذه المسائل قد سحقتني. كنتُ مرهقا جدّا يكتسحني الخدر. من الشّخص الذي كانه أبي؟ بدا لي أنّني لم أكن أعرفه. كما بدا لي أنّني رأيتُه للتّو يجذّف بمركبنا بينما يُحفر طيفه إزاء السّماء البرتقاليّة. كان سالفاتييرّا شبيها بضفّتي النّهر... أمّي وتلك المرأة السّوداء الأوروغوانيّة. على أيّ ضفّة كان يا ترى؟ لعلّه ظلّ مختبئا دائما حيث يتلامس الشّاطئان أسفل الماء.

اقتربنا أكثر من الجلبة التي كنّا قد سمعناها. ورأينا أناسا على مسافة بنايات قليلة يجرون باتّجاه الوهج الذي في السّماء. حسبتُ أنّ هناك نوعا من العروض خارج السّوبر ماركت. مرّ أمامي فتى يعدو. فسألته: «ما الذي يحدث؟»

«إنّه حريق»

أسرعتُ إلى الأمام. لكنّ شيئا مّا في داخلي كان يعدو إلى الخلف. ومع كلّ خطوة كان يتّضح لي أكثر أنّ ما كنتُ أخشاه هو ما كان يقع في تلك اللّحظة.

(36)

كان الكوخ بصدد الاحتراق.

أعرفُ أنّني كنت أجري وأتعثر بجيران كثيرين. لكنّ الصّور التي أحتفظ بها عن تلك اللّحظة مختلطة وغائمة. كان الكوخ مشتعلا: بدا السّقف متداعيا وألسنة اللّهب تقفز في الهواء. صحتُ بأحدهم كي يتّصل برجال الإطفاء. لكن قيل لي إنّهم في طريقهم إلينا. كنتُ مضطربا إلى ما لا نهاية. وحسب الجمع أنّ هناك أناسا في الدّاخل. يمكنني تذكّر تلك الحرارة على جسدي وذلك الشّعور بعدم القدرة على تصديق ما يحدثُ. لم يكن الأمر عادلا. عملُ حياة بأكملها كان بصدد الضّياع في النّار. كنتُ يائسا، أصرخ طلبا للدّلاء والماء. لكنّهم أمسكوا بي من ثيابي، محاولين إقناعي بأنّ الأوان قد فات. قاومتهم. إذ لم أستطع قبول ذلك. فقد بدا لي الأمر كما لو أنّ حياتي برمّتها وحياة عائلتي كانت تضيع في اللّهب. ذاكرتي وطفولتي... سنوات سالفاتييرّا والأوقات التي قضّيناها معا... ألوانه وجهوده كلّها... موهبتُه، أيّامه وعاطفته الصّامتة الهائلة إزاء العالم... كلّ ذلك منتهيا في اللّهيب... كلّ ما منح معنى لحياته وكذلك الجهود التي بذلتُها أنا ولويس وأمّي... صور ايستيلاّ حيّة بشكل جليّ في رسومه، عيناها توشكان على النّظر إليك... النّهر اللانهائيّ يضيع في ألسنة اللّهب إلى الأبد. لم يكن ذلك عادلا.

وضع لويس ساعده حول كتفي. ورأيته ينتحبُ. وقفنا هناك محدّقين

ولاهثين في هواء عجزِنا الحارّ عن إنهاء هذا الجحيم. جعل زيت الرّسوم وقماشها اللّفافات تلتهبُ مثل مصابيح هائلة. جاء آلدو، بوريس وحنّا إلينا. كانوا بانتظارنا طيلة الوقت خارج بيتنا. لم يستطيعوا تصديق ما رأوه أمامهم. سألونا عمّا حدث. وطرحنا عليهم السّؤال نفسه. قالوا إنّهم أنهوا عملهم في تمام السّابعة. ثمّ أغلقوا الباب بواسطة القفل. ولم يتركوا أيّ شيء مشتعلا. ولحسن الحظّ بما أنّه اليوم الأخير، فقد أخذوا معهم الماسح الضّوئيّ ومعدّاتهم الأخرى. وقف بوريس وعيناه تبرقان أمام الحريق، حاملا زجاجة النّبيذ التي أتى بها من أجل الشّواء. ثمّ بدأ يطوف حولنا وهو يلعن بلغته الهولنديّة قبل أن يتوقّف من جديد. كان كلّ واحد منّا غارقا في حزن عظيم على طريقته الخاصّة. لكنّ سكّان المنطقة الذين تجمّعوا للتفرّج حسبوا الأمر ممتعا لأنّهم لم يملكوا أدنى فكرة عن حجم خسارتنا تلك.

بعد ذلك، وصل رجال الإطفاء. لكن لم يكن بإمكانهم فعل أيّ شيء. سألونا عمّا يوجد في الدّاخل. وعندما شرحنا لهم الأمر، قالوا إنّها موادّ سريعة الالتهاب وكلّ ما باستطاعتهم فعله هو محاولة منع الحريق من الانتشار في قطع الأرض المجاورة.

لم يكن بإمكانهم إدراك عظمة الحزن الذي انتابنا لمشاهدة الكوخ وهو يحترق طيلة اللّيل أو لدخولنا في النّهاية لنجد رائحة الاحتراق تلك في كلّ مكان والرّماد مبعثرا في برك من الماء والعوارض المعدنيّة الملتوية والموقد الحديديّ المدوّر الذي كان النّاجي الوحيد.

لم نستطع أن ننقذ ولو مترا واحدا من لفافات رَسْم سالفاتييرّا التي كانت مخزنة هناك.

(37)

ثمّتَ الآن موقف سيّارات حيث كان ينتصبُ الكوخ سابقا، تماما مثلما أراد بالدوني. شاهدتُ هذا في وثائقيّ فرنسيّ عن حياة سالفاتييرّا وعمله. ما من طريقة يمكن اتّباعها حتّى نثبت أنّ الحريق كان مفتعلا وأنّ بالدوني هو المسؤول عنه. ورغم ذلك، ما من شكّ أنّ رجاله هم الذين أشعلوا الكوخ.

لقد فتُح البابُ عنوةً. وزعم بالدوني أنّ خصومه السّياسيّين قد قاموا بذلك ظنّا منهم أنّ الكوخ ملك له. وربّما حسبوا أنّه يخبّئ التّبرّعات هناك مثل الحواشي وصناديق الطّعام. ولمّا لم يعثروا على شيء، أحرقوه انتقاما منه.

وحتّى لا نبيع قطعة الأرض لبالدوني، قمنا ببيعها لشخص آخر. لكنّ صاحب السّوبر ماركت اشتراها منه بعد فترة قصيرة.

استعدنا اللّفافة التي تركناها عند إيبانيز في الأوروغواي. عبرتُ الحدود مع الثّنائيّ الهولنديّ عن طريق الجسر الدّوليّ. لم يرغب لويس في الذّهاب معنا. أمّا آلدو فلم يستطع لأنّه لم يكن يملك أيّ وثائق. ولذلك ذهبتُ مع حنّا وبوريس. وفيما بيننا، قمنا بنسخ اللّفافة الوحيدة التي نجت من النّار.

لقد حملتُ إيبانيز على الذّهاب معي إلى جهة واحدة. وقلتُ له ما كنتُ أعتقده. قلتُ له ربّما كان سالفاتييرّا أباه ومن المحتمل أنّنا أخوان غير

شقيقين. فلم أشعر بردّة فعل قويّة لديه كما لو أنّه غير مهتمّ أو ربّما لأنّ النّبأ الجديد قد أتى متأخّرا جدّا فلم يشكّل أيّ فرق. رغم ذلك، شعرتُ بضرورة أن أنبئه بالأمر مهما حمَلَنا على الشّعور بالضّيق والانزعاج. قلتُ له أيضا إنّ له نصيبا من الفضل في نجاة اللّفافة الباقية من عمل سالفاتييرّا. عندما حدّثته عن الحريق، شعر بالحزن فقط لأنّنا لن ننقل اللّفافات بعد أن حصل هو على اتّفاق مع صاحب مركب كبير.

أخذ بوريس وحنّا اللّفافة النّاجية ونسخة العمل الرّقميّة كلّها معهما. في مكتب الجمارك، قالا ببساطة إنّهما قد رسماها بنفسيهما. فلم يواجها أيّة مشاكل مطلقا. وبتلك الطّريقة وصل قماش الرّسوم إلى متحف رويل في أمستردام.

(38)

قرأتُ منذ فترة هذه الجملة: «الصّفحةُ هي المكان الوحيد في الكون الذي تركه الرّبُّ فارغا من أجلي»

لا أستطيع أن أتذكّر أين قرأتها. لقد لفتَتْ انتباهي لأنّ ذلك ما كنتُ أشعرُ به فيما يتعلّق بأبي. لطالما لم أكن منجذبا إلى الإيمان. فقد كانت فكرة إضافة أبٍ روحيّ إلى الأب البيولوجيّ العملاق الذي كان لديّ سلفا أمرا يسحقني تماما. فهمتُ الجملة على النّحو التّالي: «الصّفحة هي المكان الوحيدُ في الكون الذي تركه أبي فارغا من أجلي». نحن نحتلّ الأمكنة التي يتركها آباؤنا فارغة. احتلّ سالفاتييرّا مكانا هامشيّا بعيدا قدر المستطاع عن آمال جدّي وجدّتي بأن يصبح مربّي ماشية. أنا أقيم في الكلمات التي تركها صمتُ سالفاتييرّا عذراء. بدأتُ أكتبُ منذ سنتين. أشعر أنّ هذا المكان، فضاء الصّفحة الفارغة، ملكي بغضّ النّظر عن النّتائج الممكنة. ينحسر العالم برمّته في هذا المستطيل.

ابني غاستون نذر نفسه للموسيقى. إنّه عازف قيثارة ضمن فرقة موسيقيّة. وهو يعزف بشكل جيّد. يعيش في برشلونة. ذهبتُ لزيارته قبل سنتين. بحثتُ عن عمل دون أن أحقّق نجاحا كبيرا. ولذلك عدتُ في النّهاية. أعيش هذه الأيّام في غاليغاي على مسافة سويعات قليلة عن بارّانكالس. في المساء، أعمل في صحيفة محلّيّة. وفي الصّباح، أكتب أشيائي الخاصّة. وأمشي عبر الشّوارع الهادئة.

(39)

أثناء نهاية أسبوع خلال الرّحلة التي قمتُ بها لزيارة غاستون، ركبنا طائرة إلى أمستردام. وذهبنا لزيارة متحف رويل. لقد كان هو من طلب منّي الذّهاب. كان عليّ أن أخفي فخري بذلك. لقد أقسمتُ سلفا أن لا أطأ المكان أبدا. لم تعد علاقتنا بالمؤسّسة جيّدة. لقد دفعوا لنا ما يقاربُ خمسة بالمائة ممّا وعدوا به.

ورغم ذلك، فقد أقنعني ابني بالذّهاب. وصلنا ذات صباح أمام المبنى المخصّص للمجموعة الأمريكيّة اللاتينيّة. كان قريبا من نيوماركتْ. تركنا معاطفنا في غرفة الإيداع. واقتطعنا تذاكرنا. ثمّ ذهبنا إلى الرّواق حيثُ تعرضُ اللّفافة التي أنقذتُها أنا ولويس. كان من الغريب رؤية العالم الحميميّ لقيلولة يوجينيا راكامورا عند الطّرف الآخر من الأرض وتحت إضاءة اصطناعيّة. لقد بدت بشكل مّا حالمة بالخيول وهي تتأهّب لبداية السّباق ثمّ تنطلق مسرعة، تخبّ باتّجاه الشّاطئ. وبعد ذلك تجتاز النّهر دون راكبين إلى أن تصل إلى الضّفّة المقابلة، حيث تختبئ أمّ أخي غير الشّقيق إيبانيز تلك المرأة السّوداء في الظّلال.

ومع ذلك، فإنّ المفاجأة الأعظم كانت حين نزلنا عبر الدّرج إلى القسم القديم من المتحف. فجأة، على امتداد جدار طويل ورواق مقوّس رأينا عمل سالفاتييرّا. إنّه يعكس لمَعَانًا مزعجا مثل أكواريوم. ويمتدّ على التّدريج عبر شاشة بحجم القماش تماما.

تتقدّم النّسخة الرّقميّة للعمل بطيئا من اليمين إلى الشّمال كما لو أنّ النّاظر ينزلقُ عبر تيّار النّهر أو الرّسم. جلستُ أنا وغاستون لنتفرّج. رأينا ما رسمه سالفاتييرّا قبل وفاته بالضّبط: الطّاهي ذو العين الواحدة الذي اعتنى به حين أوشك أن يقتله جوادُه، صديقه جوردان وهو يعزف على أكورديون تتدفّق منه موجات من الماء والسّمك، بنات أعمامه العاريات وهنّ يستحْممْن في النّهر تحت الضّوء النّاعم لأشجار الصّفصاف وأمّي تحتسي شاي المتّة وحيدة تماما في فناء بيتنا. رأيتُ أناسا يمرّون ويتوقّفون. ثمّ يجلسون أمام الرّسم لوهلة أو اثنتين. الآن يستطيع الجميع رؤيته. ما حقّقتهُ أنا ولويس لم يكن سيّئا على الإطلاق. رأيتهم يبتسمون من الذّهول أمام صور سالفاتييرّا الغريبة وضوئها وألوانها. الآن، يجتمع كلّ شيء ويستطيع العمل أن يتدفّق من الحدّ إلى الحدّ دون أيّ فجوة. وكنتُ هناك مع ابني البالغ من العمر ثلاثًا وعشرين سنة، لقد تمكّن من رؤية ما أنجزه جدّه، هذا الرّسم الذي يلفّنا جميعا وهذا الفضاء حيث يمكن لإبداعاته أن تتحرّك بحرّيّة ودون حدود لأنّه ما من قيودٍ هناك أو نهاية ولأنّنا بعد أن جلسنا هناك لفترة طويلة، استطعتُ أنا ولويس أن نلاحظ أنّ السّمكة والدّوائر المرسومة في الماء، أي ما حسبناه نهاية اللّفافة الأخيرة، تتوافق تماما مع الدّوائر والسّمكة الموجودة في البداية الأولى، مرسومةً من قبل سالفاتييرّا حين كان سنّه يناهز العشرين.

ألفــ راء

علامات في الرواية العالمية
سلسلة يديرها ظافر ناجي وشوقي العنيزي

ساعي بريد نيرودا

المؤلّف: أنطونيو سكارميتا
البلد: الشيلي
ترجمة: صالح علماني

هي حقّا رواية بطعم الفاكهة، تبدؤها فإذا أنت متورّط فيها حدّ المتعة، تنال من كلّ حواسّك وتسحبك من عالمك إلى عالمها فلا تستطيع لها تركا ولا منها فكاكا قبل أن تقرأ الجملة الأخيرة .. رواية شحيحة الشخصيّات قليلة الأحداث يمكن تلخيصها في كلمة «نيرودا» وهو ممدّد على فراش المرض ردّا على ساعي بريده «ماريو خيمينث» وهو يسأله عمّا يشعر.. فيجيبه بكلّ بساطة وعمق: «أشعر بأنّي أحتضر. وباستثناء ذلك ليس هناك ما هو خطير».

أيّة مفارقة أجمل من لعبة اللغة توحي وتسخر وتمكر؟ لغة هي النّسيج واللّباس والرّائحة والالتباس. تلتبس عليك الأحداث فلا تعرف ما الواقع وما الخيال وما السّحر. وتلتبس عليك الشّخوص والشخصيّات والأشخاص فتتساءل: من البطل؟ ولا جواب .. كلّهم أبطال ولا بطل.

نحن إزاء رواية علامة في تاريخ الأدب العالميّ. علامة تنساب المتعة مع سطورها كخدر الحبّ في العروق لذلك فهي تكره القارئ العاديّ وتنشد قارئا عاشقا شبقا لا ينتهي من الصفحة حتّى يستزيد إلى أن يفقد الوعي... أي يسترجعه.

ظافر ناجي

رحلة في أقاصي الليل

المؤلف: لويس فرديناند سيلين
البلد: فرنسا
ترجمة: حسن عودة وأيمن حسن

«ستكون بمثابة الخبز لقرن كامل من الأدب.»

سيلين متحدثا إلى ناشره

«هناك كتب يصعب تفسيرها: تبدو كأنها خرجت من حيث لا ندري، ولكن عندما نقرؤها، سرعان ما نتساءل كيف عاش العالم من دونها. و«رحلة في أقاصي الليل» تنتمي إلى تلك السلالة النادرة: بداهتها توقع الاضطراب في حياة كلّ قرائها. لغتها الخام تغيّر طريقتكم في الحديث والكتابة والقراءة والحياة. لا يمكن لأحد أن ينجو منها. كم أحسد منكم أولئك الذين لم يقرؤوا بعد هذه اللوحة الملحمية»

فريدريك بيغبيدي

«تَكمنُ عظمةُ «رحلة في أقاصي الليل» في غياب أيّ دعوة للإحساس بتلك الرحمة الجنونية التي كرّستها الوضاعة المسيحية وجعلت الوعي بالبؤس شعارا لها. فلقد مضى زمن لعبة زولا السخيفة التي مكنته من استلال عظمته من مآسي البشر، وهو الذي بقي غريبا عن الفقراء. ما يَسم «رحلة في أقاصي الليل» ويمنحها معناها البشري، هو تبادل الحياة مع الذين يدفع بهم البؤس خارج الإنسانية – تبادل الحياة والموت، الموت والانحطاط.»

جورج باطاي

إنّ «رحلة في أقاصي الليل» لسيلين أهم رواية فرنسية بالنسبة إلينا... لقد حفظنا عن ظهر قلب مقاطع كاملة منها. كانت فوضويّتها قريبة من فوضويتنا نحن. ولقد كُتبت نكاية في الحرب، في الاستعمار، في الرَّداءة، في التعابير الشائعة، وفي المجتمع، كُتبت بأسلوب أخّاذ فتننا جميعا. لقد نحتَ سيلين آلة جديدة: كتابة أعلق بوهج الحياة من الكلمات. ولقد قلبت أسلوب سارتر رأسا على عقب.»

سيمون دي بوفوار

عمل فذ يجدر بنا قراءته والتعامل معه بجدية حقيقية. إنّ سيلين لا يكتب إلاّ بعد أن «يضع جلده على الطاولة»، وعيا منه «بأنّ الموت وحده هو الملهم»، واعترافا بأنّ الكتابة أهم من الحياة أو هي في أسوأ الأحوال مُعادل لها.

تعلمون إذن ما ينتظركم، حتى أنّه بوسعي أن أذهب بعيدا في المجاز لأقول برفقة دانتي أليغييري: «أنتم أيّها الداخلون هنا، اخلعوا عنكم أيّ أمل كان». فعلى قارئ رائعة سيلين أن يشحذ عزيمته لكي يتحمل أعباء هذه المغامرة»

أيمن حسن

بيدرو ميرال

السنة المفقودة

«إنها رواية الزهد اللاتيني، رواية الصمت وخيبة الأمل أيضا. سالفاتييرا الذي سيصاب بالخرس في طفولته، بعد سقوطه من على ظهر حصان، سيهتدي إلى لغة أخرى بعد أن فقد نعمة الكلمات، وسيقضي ستين سنة في رسم لوحة واحدة طولها أربعة كيلومترات. لم يكن يفكر في عرضها على المتاحف وتجّار الفن وهواة الأرقام القياسية، لم يلجأ إلى الإعلام، لم يكن معنيا على الإطلاق بمكبرات الصوت والصورة في عالم الفن. لقد كان سالفاتييرا منشغلا بالرسم فقط، بتلك اللوحة التي ظلت تتدفّق على طول السنين ولم يوقفها سوى الموت.»

عبد الرحيم الخصّار

«تكون في راحة من عقلك وبمجرد أن تتصفّح الكتاب يختلّ توازنك، وتمضي في نهر الحكاية مسحوبا باندفاع التيّار، بعيدا عن غرفتك، عن طاولتك وكرسيك ومصباح مكتبك، وأنت تجذّف خلف الرّاوي باحثا عن لفافة الرسم الضائعة.

تجتاز قرى أرجنتينية، تقابل صيّادين ومهرّبين، تمشي على طول أنهار موحلة وتركب عبّارة صدئة في جنح الظلام قبل أن تهتدي إلى أنّك كنتَ بصدد البحث عن قصيدة رسمها بيدرو ميرال وكتبتها عيناك على الطريق وأنت تقرأ.»

زياد عبد القادر

«هي رواية صغيرة، ولكنها عبقرية، فيها تتكلّم رسوم سالفاتييرا من تلقاء ذاتها لتقول لنا: كان يا ما كان...»

صالح علماني

ISBN: 978-9938-833-51-5
9 789938 833515

مسكيلياني